الضعف

اسم العمل	:	الضعف
النوع	:	رواية
تأليف	:	صبحي شحاتة
تصميم الغلاف	:	أحد الملواني
إخراج داخلي	:	محمود عبدالفتاح
الطباعة	:	اتيليه تاتش – المحروسة
الناشر	:	الدار للنشر والتوزيع
المدير العام	:	محمد صلاح مراد
تليفون	:	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريد الإلكتروني	:	eddar_press@yahoo.com
فيس بوك	:	www.facebook.com/eldarpublish
رقم الإيداع	:	٢٠١٨/٢٣٨٦٩
الترقيم الدولي	:	I.S.B.N.: 978-977-702-226-2

الضعف

رواية

الدار للنشر والتوزيع

٢٠١٩

إلينا طبعًا

نشيدنا

لا
فخر
نحن
الضعفاء.
جهلاء
ولو كنَّا العلماء.
كسرًا بشريًا،
ولو كنَّا الكمال يمشي.
مدعين كذابين،
وإن كنَّا الصادقين.
وضيعي النفوس،
وإن كنَّا فوقها.
كشري الوجوه،
وإن السعادة ماؤها.
كارهي الحياة،
وإن كنا دماءها.
بلا قيمة،
وإن كنَّا ميزانها.

مذلين مهانين،
وإن الأصل مكانونا.
فقراء،
ولو قارون خادمنا.
بلا معنى،
وإن كنَّا كتابًا.
مشردين،
ولو بين أهلينا.
صيَّعًا،
ولو لم نفارق بيوتنا.

غلاظًا
ولو الرقة شرابنا.
نصابين،
ولو تقدسنا.
حاسدين،
ولو كُرّمنا.
موامس،
ولو الصقور أشنابنا.
شواذًا،
ولو الأصول منبتنا.

شتامين لعانين،
في تهذيبنا.
لريح الأرض وحزنها مطايا،
وإن كنا في سمائها أقمارًا.
كلابًا قططًا أرانب،
صراصير حميرًا جاموسًا،
بقرًا ثيرانًا غربانًا بومًا،
وإن كنا الأسود الضواريا.
عرجًا مشلولين معتوهين مجانين،
وإن كنا العتاة الفوارس.

مساكين،
ولو جبارين.
سمجين قبيحين،
في جمالنا.
باعة جائلين،
ولو ملكنا الدكاكين.
مجرمين سفاحين خطافين مغتصبين،
ولو في النعيم رافلين.
عراة،
ولو كنا خياطين.

طماعين نهاشين نهابين،
وإن بدونا مترفعين.
بكائين شكّائين مولولين نواحين،
وإن كنا السعداء الضاحكين.
مهتوكين مسروقين منهوبين مظلومين مسجونين مشتومين،
وإن كنا الكرام السخيين.
للنجاح كارهين،
وإن كنّا فيه قائمين.
وخمين كسلانين عنينين،
في نشاطنا.
هلاسين، ثقال الظل، لا وزن لهم، غائبين في حضورهم، منسيين،
ولو على السحب ماشين.

بلا مستقبل،
ولو كناه.
في الهامش،
وإن كنّا متناه.
مبغضي التقدم،
وإن كنّا منتهاه.
عزالاً،

ولو كنا الأحبة.
رافسي النعمة،
ولو كنَّا النقمة.
لا نعرف القيادة والقوة السلطة والكرامة والسعادة،
وإن كنَّا عين السيادة.

أبناء الليل المطاردين من الكل،
المختبئين من الكل،
المرتعبين من الكل،
ولو كنَّا فوق الكل.
سفلة أدنياء،
مدمري أنفسهم والآخرين،
زبالة البشر أجمعين،
ولو كنَّا آلهة.

نحن الضعفاء،
لا
فخر.

قد يقول واحد منكم:

إن هـذا هـو حـال الجميـع، فالإنسـان متناقض منـذ وُجد، ومحكـوم عليه بذلك دائمًا، والضعـف ملازم للقوة، وإن الكل من ثم بريء ومدان في آن واحد، وليس ثمة قوة مطلقة، وعليه فإن ما نقوله مجرد انفعال، ورغم أنه مجرد انفعال، إلا أنه ينطوي على مكاشفة ومصارحة، ومن ثم نحن أقوياء بما يكفي حتى نظهر ضعفنا بهكذا وضوح، وبذلك ننقد وننقض ضعفنا حال إعلانه، فالقدرة على التعبير عن الضعف ليست ضعفًا.

نعـم قـد يقول أحدكم هذا، لأنه واحـد منكم، كريم بين كرام، نزيه رائق صافٍ سـليم الطوية، وليس منا نحن الضعفاء المُذلين، فلو كان منَّا، لنظر كما ننظر، بفرض أن لنا نظرًا، ولعلم دون أدني ذرة شـك ولا جهد في التفكير والتمحيص، أننا نريد الضعف لذاته وبذاته، بفرض أن للضعف ذاتًا مستقلة قائمة بنفسـها، وليس موقفًا من أنفسـنا ومجتمعنـا والوجود، وطريقة للحياة اخترناها عن وعي، ونمضي فيها بإصرار.

وقد يضيف واحدكم هذا باسمًا بترفق، خجلاً من صراحتنا السخيفة تلك، وتباهينا بالضعف:

إن القدرة على الاختيار من سمات الحرية، لأن الحر هو القادر علـى الاختيار، وليس المُرغـم، وحتى لو أرغـم، وقبل الإرغام، فهو إذن حر، والحرية قوة وليسـت ضعفًا، بل هي أساس وجوهر وكينونة الموجود الإنساني برمته.

نعم نحن نعي هذا، ولكن هذا الوعي لا يجعلنا نعتبر أنفسنا علـى خطأ، ومن ثم ينبغي لنا العودة إلى صحيح الفكر، والأخذ

بالصحة والقوة، كما هو شأن كل مريض، يريد الصحة، وكل ضعيف يريد القوة، وإنما يجعلنا نعي أننا لسنا ضعفاء كفاية، ولا أذلاء كفاية، وحقراء كفاية، لذا نتسابق في مضمار الضعف، ويحاول كل منا التفوق على أخيه في الضعف والذلة والمسكنة.

وعندما لا نستطيع الوصول إلى مثال الضعف الكامل، نشد الرحال إلى سيدنا أبو الضعف، الذليل الأذل، لنستمد منه العون والمدد والزاد والزواد، فالاختيار والحرية والقوة والكرامة.. إلى آخر تلك القيم الإيجابية، التي هي غاية الجنس البشري الكريم، نستخدمها نحن وسائل للوصول إلى مثال الإنسان الضعيف النموذجي في ضعفه، الكامل الصافي النقي، الضعف الخام.

لماذا؟

لأننا لا نريد الحياة.

لماذا لا نريد الحياة؟ هل عرفناها جيدًا، وجاهدنا لمعرفتها، وكافحنا لفهم أساسها وغايتها؟ هل بذلنا جهدًا في هذا أو شيئًا منه؟

لا أبدًا.. لقد وجدناها معاناة في معاناة، وقصيرة وفانية ومتغيرة، لا يُعرف لها حق ولا حقيقة، وما هي إلا وهمٌ ومظاهر خادعة، ولذاتها وقتية سريعة الزوال، وألمها باقٍ، وحزنها مقيم، والفشل أكثر من النجاح، والمرض أوفر من الصحة، وكل شيء فيها غريب، طارئ زائل زائف، والوجود كله عبثي.

وعلى فرض وجود حياة خالدة في عالم آخر، أو على الأرض، فستكون هذه الحياة الطويلة بإفراط مملة، ومن ثم ستكون أقصى من الضياع في الفناء.

وإذا كنَّا ما أن نعيش نموت ونزول، وليس ثمة جدوى في العمل والكفاح والنضال، وتسجيل أسمائنا في لوح البشرية التاريخي، فإن القعود عن الفعل وانتظار الموت لهو أفضل حل لتلك المأساة التي نسميها الحياة.

وإذا سألنا أحد متهكمًا، وقد سد أنفه عن رائحتنا العفنة وقال:

إذن والحال هكذا كما تفصلونه بثقة ويقين لا شك فيهما ولا شائبة تشوبهما، فلماذا تستمرون في الحياة، وينادي بعضكم بعضًا، وتتجمعون وتتوحدون خلف سيدكم، وبجملة: لماذا لا تنتحرون انتحارًا جماعيًا شاملاً كاملاً، وتكونون بذلك حققتم مثال الضعف الكامل، أي الفناء.

سنقول ردًا على هذا المشمئز منَّا، وهو محق في الاشمئزاز منَّا، بل وندعوه أن يشمئذ منا ما شاء له الاشمئزاز، إننا نبقى في الحياة، وسنبقى في الحياة، لشيء واحد هو: الاستمتاع بالضعف. نعم إن في الضعف لذة تفوق لذة القوة، وفي الفشل لذات تفوق لذة النجاح، ثمة ضروب نكتشفها داخل حفرتنا وخرائنا ومذلتنا؛ لن تعرفوها أنتم يا من تكرهون الضعف؛ وهو لذة اللذات.

ومع ذلك يمكن أن يقول ثالث بمكر لاعب:

إنه طالما أنتم تحصلون على اللذة والمتعة ومن ثم السعادة من الضعف؛ الذي تعتبرونه غاية الحياة وحقيقتها؛ إذن أنتم لستم في ضعف، وإنما في سعادة ولذة ومن ثم في قوة؛ فالضعف ليس فيه سعادة أو لذة.

نرد عليه بالقول الذي يجعله يسقط في يديه:

إن لذتنا القليلة الشحيحة التي نحصل عليها من ضعفنا ، أداة لضعف أشد ، ومن ثم ألم أشد ، ومهانة أشد ، إننا نريد الضعف الكامل لا شية فيه ، لا ألم ولا لذة ، خور تام ، حياة هي والعدم واحد ، وجود يفوق الموت موتًا ؛ لأن الموت بمعنى ما خلاص ، ونحن لا نريد الخلاص من الضعف؛ ومثالنا في ذلك سيدنا وأبينا أبو الضعف كله؛ المختبئ في معبده تحت الأرض.

❖ ❖ ❖

فكل عام نأتي هنا ، إلى معبدنا ومعبودنا ، ورئيسنا وسيدنا وحبيبنا الضعيف الذليل الأذل ، شيخ طريقتنا أبا جماعتنا الكبيرة؛ الذي لم يخرج قط ، ولن يخرج أبدًا ، من جحره إلى العالم الشرير الضاري؛ ضارعين باكين شاكين معفرين وجوهنا منادين طالبين القوة والمدد منه؛ ليعيننا على احتمال ضعفنا وذلنا ، حتى نستمر فيه دون توقف. نأتي جماعات ووحدانًا ، راكبين وسائرين ، نساءً ورجالاً ، أطفالاً وصبية وشيوخًا ، أغنياءً وفقراءً. نأتي بخيبتنا وذلنا ودموعنا وحقدنا وخرابنا كله لنلقيه أمامه ، لا ليمحوه عنا ويطهرنا منه ، وإنما ليزيده لنا ، فنعود ضعفاءً أكثر ، مذلين أكثر ، خانعين أكثر ، سفلة أكثر.

نتدافع بالمناكب والرؤوس والأيدي والأرجل ، يدوس بعضنا بعضًا في طريقنا ، ويقتل بعضنا بعضًا ، دون اهتمام بمن يموت ومن يحيا ، فنحن موتى نتحرك كالأحياء.

منا من يحملون الرايات ، مهترئة وممزقة ، سوداء ورمادية ، عليها وجه عظمي شاحب ميت ، ومن يأتون بالذبائح الرمية العفنة المسممة ، والأموال والخدم والحشم والعبيد ؛ في عربات قوية

حديثة وحضور ثري مهيب فاخر؛ وذوو الأسمال البالية والخرق على أجسادهم، يجرّون أنفسهم وزوجاتهم وأبناءهم باكين مولولين ضارعين؛ ودقاقون الدفوف، والصنج، والغوازي المتهتكات الداعرات المومس، بنات الليل والمواخير والشقق المفروشة، ومن فاتها القطار، والطماعة النهمة عابدة الجنس لذات الجنس، والشرموطة بالسليقة، وغير المتآلفة مع الكنس البيتي، والطبخ البيتي والهوان البيتي، تأتي لتتقوى وتعود مجددًا، تخدم وتمسح السلالم والبلاط والحمام والجدران والخراء والبراز والمنيّ؛ متحملة الضرب والصفع والتحرش والاغتصاب اليومي المعتاد، باسم الزواج الرسمي والسترة؛ والقوادين، وماسحي الجوخ والأنطاع واللواطين والسحاقيات، ومحبي الاستمناء، والخوافين من العفاريت والجن والأعمال السحرية، والمستقبل والماضي والحاضر، والخوافين كده وخلاص، هواية وحب للخوف، ولذة الرعب ونعومة المسكنة، والصامتين المضروبين على أقفيتهم من الجميع، واللصوص وقطاع الطرق والأغبياء والبلهاء..

حشد حاشد، يلوث الصحراء، ويتجه إلى المعبد القديم الخرب المهجور الأسطوري العفن المهدم أسفل الجبل الكبير، يوجد داخله الكهف الحجري الكئيب، الممتد في عمق الأرض سبعة أبواب وسبعة دهاليز وسبع أقبية وسبعة أحزان. جحيم ينتظرنا كل عام، نزوره كئيبين مكتئبين صامتين صمتًا باكيًا، أو ضاربين الصدور والخدود، ننوح بذل ومذلة وضعف كامل وخور مريع؛ عالم قديم غامض سحري مليء بالسخف والشر والسحر والعفن والموت والجثث، قبر ضخم هو قدس أقداسنا بيتنا ملاذنا الحبيب.

نهرع إليه بأجسادنا المترجرجة والناشفة، السمينة المرفهة، والفقيرة الممصوصة، منتعلة الأحذية والحافية، المتزينة بالثياب والعارية، المعطرة الرائحة والكريهة الرائحة، متعرقين في حر الصيف، وتحت سماء لعينة فاجرة، تصب علينا حممها، فنشتم ويسب بعضنا البعض، ويطأ بعضنا البعض، ويتحرش بعضنا بالبعض.

فيما الحشد طائط في خبل وجنون، ضاج بالطبول المرعبة، والدفوف المخيفة، والرايات الكئيبة، والرقص المتشنج المصروع، والبكاء الحارق المحترق.

كأننا الجراد المنتشر، أو كأنه يوم قيامتنا، نعفر الصحراء وتعفرنا ونثير رمالها فيغطينا بصفرته، وزوابعها تبتلعنا وتمور بنا؛ ونبدد صمتها العميق، ونفزع حيواناتها وضواريها وكلابها وسحاليها وثعالبها وموتاها، وأهراماتها الكبيرة والصغيرة المتناثرة هنا وهناك مهجورة ومهدودة؛ ونغير الجو الصحراوي الجاف الحار بأنفاسنا المريضة، ونزعج أرواح القبور؛ فتطوف بنا صارخة، وتخايلنا روح الفناء من بعيد وقريب كسولة متثائبة، فنشهق ونبكي ونتضرع أكثر.

منا الزاحف على ألواح خشب أو صاج قديم، تنزلق على عجلات خشب أو حديد صغيرة، تنغرس في الرمال مهما حاول دفعها أو جرها، فيحفرها ويجرفها ويسبح فيها، والزاحفون على صدورهم، يحثون التراب والطين والرمل، والمرضى المحمولين على الظهور، وعلية القوم على المحفات القوية يحملها عبيد أشداء، والمقطعي السيقان..

بؤساء ولمامة الكون كله، أغنياء كانوا أو فقراء يأتون ليغزوا الصحراء، ويوقظوا فيها حياة وسخة قذرة عفنة، لبشر كسر مطرودين من الأرض كلها.

نحن لسنا مصريين، ولا عربًا ولا أفارقة، ولا أوربيين ولا آسيويين فحسب، وإنما من جميع أنحاء العالم؛ نحن الأبناء الخطأ للأرض، خطأ في التطور، فنحن نعكس مساره، لا نصعد ولا نطفر، وإنما نهبط، مرضى بالجسد والروح؛ وخطأ في المجتمع، لا نشارك في شيء، لا نعرف شيئًا، ولا نرى شيئًا؛ كسالى عنينين، نحب الضعة والهوان والمحلسة والخضوع والتصاغر، وكل ما هو حقير ودنيء؛ يجمعنا سيدنا الضعيف الذليل الأذل الحقير الأحقر الوضيع الأوضع، وهو معروف لنا كلنا منذ صغرنا، فأهالينا كانوا يحكون لنا عنه: خنوعه، وحبه للذل والمسكنة، وحمل الخراء على رأسه سعيدًا به. ويأتون بنا هنا ليرونا الطريق، ويعلمونا الطقوس، ويغرسوا في نفوسنا البدائية وسخهم الأصلي، وها نحن على طريقهم وطريقتهم سائرون، ندور ونلف ونحوم ونكرر رحلتهم الأبدية الخالدة، في مضمار الذل والمسكنة والضعف.

ومعبده دارنا المريحة، وجهتنا في غربتنا، ملاذنا الأول والأخير، منه نحصل على الطاقة التي تجددنا وتقوينا على ظالمينا، فنحتمل ظلمهم، فنحن لا نعرف الثورة على الظلم، نكرهها، ولا نعرف فرحة الانتقام من مستضعفينا، نخافها، وننفر من النظافة ونألف الوساخة والعطن والخرابات، والعتمات والظلام والوحدة والصمت والخرس والأنين الحزين الباكي الشاكي، دون فعل دون أمل دون عمل حتى نذوب ذلاً.

ولما نتعب من مشقة الصبر على محبينا ، الناقدين، الراغبين لنا خير الكرامة وسمو النفس وعلو الهمة والهامة ، وننهزم تمامًا طيلة السنة الكئيبة ، حتى نكاد نكره ضعفنا ؛ نشد الرحال إلى سيدنا وحامينا ومددنا ، لنلوذ بحضنه العفن، بعد أن نجتاز إليه أبواب وبحور الخراء ، وقبور الموت ، وصيفًا وشتاء ، ولعنة تلو لعنة ، طالبين ليس الرحمة ، وإنما المزيد من الهوان والضعف ، لنتطهر فيها ، ونتقوى بها ، ونغتسل في بحر العطن والوسخ والقذارة ، والضعف والخسة ، حتى نعود بزاد يقوينا على الحياة تحت الأقدام تدوسنا وتذلنا ما شاء لها الدوس والذل ، وعلى كِيف كِيف أصحابها ، سادتنا في كل مكان وزمان.

❖ ❖ ❖

باب المعبد قديم قدم السماء والأرض ، كئيب كآبة الوحدة والفشل ، مخيف خوف الفقر والغربة ، ندخله جماعات جماعات ، أرتالاً بلا حد ، ونحن نبتهل ونصفق على أيدينا ذلاً وخضوعًا وخنوعًا وبكاءً طالبين الرحمة ، رحمة الذل والهوان والانحطاط.

خدم المعبد قذرو الثياب والجلد ، غليظو الشعور ، حفاة أجلاف ، معدنو الصوت ضعيفو النظر ، خائرو القوى ، لا قوام لهم ، هم مثلنا موتى أحياء بل أكثر منا ، فهم واسطتنا إليه ، رسل المهانة والذل ، النظرة إلى وجوههم الحزينة الخائرة المسكينة تمرض السليم ، وتكئب المهرجين ، وتسد نفس الطهاة عن طعامهم وتهزم عزيمة الشياطين فتهرب مولولة ؛ ما أن يقوموا إلينا من قبورهم العفنة العطنة ، حتى ينهاروا فيها ضعفًا وذلة وحزنًا وبكاءً ؛ حتى يفتحوا لنا البوابة الكبيرة الكئيبة ،

المغطاة بالسخام وطحالب العفن القديم، والعنكبوت، وخيوط الدموع تشق خشبها وتحفره وتفتته وتخوخه، فتكاد أن تنهار علينا وتسحقنا، ونحن محتشدون أسفلها نصرخ ونبكي وننوح.

ندخل إلى عالمنا القبوي السحري الكابوسي اللعين والملعون، فتهب علينا ريح العفن والقذارة والزبالة والجثث المتحللة؛ فمعبدنا قبر كبير لا محدود، من بداية التاريخ وإلى الآن، لا يدخله إلا نحن: أوساخ البشر مهما استعملنا الماء، وحفاتهم مهما انتعلنا الأحذية، وعراتهم مهما اكتسينا الملابس؛ الذين تجدهم يتدحرجون على الطريق بين أقدام الناس، وإن كنا فارعي الطول وعماليق، مكسورين زاحفين متسولين مرضى مهزومين سخفاء بلهاء مطعونين مبرشمين جوعانين ضاحكين ضحكًا هو البكاء عينه؛ وإن بدونا غير ذلك كله.

❖ ❖ ❖

نهر الخراء

بهـو طويـل عميق بـلا نهاية، يتجمـع فيه كل ظـلام العالم، ووطاويطه ماصة الدماء، وحشراته الغليظة، وعناكبه الرهيبة، وثعابينة وحيَّاته؛ وكل مخوف رهيب قديم وجد أو سيوجد؛ حيطانه مهدمـة متداعية، عليها آثار ألف مليون كف مستسـلمة ضارعة بالذل والهوان، ودماء متجلدة قديمة، لألف مذبحة حدثت في غابر الزمان، وألف مليون رسم حزين كئيب، لوجه باكٍ وشاكٍ مقهور، لامرأة ضاعت، أو طفل مغدور، أو فارس بلا رأس، وجواد مذبوح.. تاريخ من الحزن والضعف والموت، مسطور على الجدران العتيقة.

تهاجمنـا رائحـة العفن المعتقة الزنخة المقذعة فتسـكرنا، والخراء القديم اليابس، والجديد اللين يسحرنا، والجثث العفنة المتفسـخة تذهلنـا؛ نحـن الذاهليـن المذهولين أصـلاً؛ فنمضي غائصيـن في العتمة كأشـباح الكابوس، مهيليـن الطين اللذج العفن على رؤوسنا، ومهللين طالبين القوة على التحمل من سيدنا الذليل الأذل الحقير الأحقر السافل الأسفل، فلا يسمعنا؛ فهو بعيد في سـفالته الخالصة ينعم بالخراء والذلـة والضعف هو الكهين الأكهن؛ يقودوننا خدم المعبد السخفاء الملعونين إلى بحر الخراء الغليظ العامر المكتظ لنعب منه ما نشاء؛ ندخلة جماعة جماعة، وفوجًـا فوجًـا، ورتلاً رتلاً، رائحته مسـممة عتيقـة لذجة مخدرة مميتـة، فيقيء بعضنا أو أغلبنا إن لـم نكن جميعنا، ويغيب عن الوعـي من يغيـب، ويغوص في الأعماق المريعة مـن يغوص ميتًا؛ وتدفـع الحشـود بعضها البعـض، فيفيق من يفيق، وينسـحق من

ينسحق؛ بخار البحر الشنيع يغطينا ، ولزوجة هوائه الراقد الميت تخنقنا وتحرقنا ، لا يرى السائر الخائض في بحر الخراء هذا ، من جواره، ومن أمامه، فيما نسبح في مائه الثقيل، باكين طالبين القوة على التحمل؛ ويواصل الغرقى منا غرقهم، فيما تدوسهم الأقدام؛ فنحن معتادون على ذلك، نعيش في الخراء ونأكله، ونبتهل راغبين القوة على التحمل؛ الكسيحون يسبحون، المشلولون يقفزون في اللذوجة الشديدة، فالبحر ليس بحرًا وإنما هو مصرف المدينة، إن لم يكن العالم كله، مكان تجمع الغائط والخراء والبلغم والسخام والأمراض والسموم، ما ظهر منها وما بطن، المعروف منها وغير المعروف، الثقيل منها والأثقل، المميت والمفسخ للجسد؛ نخوض فيه حتى نملؤه كله والخدم يصبون علينا المزيد من الزبالة؛ أوراقها الممزقة الناشفة الحادة المتجلطة كأنها مزق من زجاج، والطرية المهرية الملطخة بالغائط الطازج، والحجارة المسننة الثقيلة والرفيعة الحادة كأنها الخناجر، وحفنات الطين السخية، والشتائم المنتقاة تصيب الروح فتهرب من جسدها متقذذة؛ فهذه هي الطقوس المعتادة من آلاف السنين، وهي ذاتها الشتائم التي تنهال علينا من الناس في الحياة الخارجية، التي جئنا منها هاربين طالبين العون والمدد.

يهتف الخدم الحقراء السخفاء، في جمعنا الحاشد الخائض في الغائط والخراء، فيرن صوتهم في آذاننا ، كأنه صوت ساحرات الكابوس والنداهات الماكرات الأفاعي، في الغابات المسحورة الخرافية:

يا أبناء الضعف والذلة والمسْكنة؛

يا أوساخ يا حقراء، يا كلاب يا خنازير يا زبالة؛
لا أهلاً بكم في بيتكم الحقير القذر السفيه؛
يا أدنياء النفوس،
يا قذارة تسير على قدمين،
يا جهلاء بالفطرة.

ولا سهلاً بكم في مبائتكم وخرائكم؛
زدتمونا تعاسة على تعاستنا،
وأضفتم لمعبدكم وساخة على وساخته،
وحقارة على حقارته،
أنتم بلا قيمة، هكذا ولدتم،
وهكذا عشتم،
وهكذا تعيشون،
وهكذا ستعيشون؛
بشر كسر،
لمامة،
أولاد لأولاد أوساخ،
من نسل حقير،
ضعاف،
فظاع، وجوهكم بشعة،
عقولكم مريضة،

أجسادكم هزيلة.

ويصرخـون مولوليـن مطوحيـن رؤوسـهم لاطميـن خدودهم وضاربين دفوفهم ونائحين،

فنحاكيهـم صاغريـن ضاربيـن وجوهنـا صاكيـن خدودنا باكين شادين شعورنا:

مذمومون أنتم.

مذمومون مذمومون.

أوساخ أنتم.

أوساخ أوساخ.

حقراء.

حقراء حقراء.

سفلة.

سفلة سفلة.

بلا قيمة.

لا قيمة لا قيمة.

كلاب.

هوَّ هوَّ هوَّ ..

قطط.

نوَّ نوَّ نوَّ ..

صراصير حشرات خنافس ديدان

نعم نحن ذلك وأكثر من ذلك،

ونريد القوة على تحمُّل ذلك.

تراب وغائط.

نعم نحن ذلك وأكثر من ذلك،

ونريد القوة على تحمل ذلك.

ونخوض في نهر الخراء متدافعين باكين شاكين، شادين شعورنا، ضاربين صدورنا منقلبين، يغرق مَن يغرق، ويطفو مَن يطفو، نقاوم الهذال بهذال أشد، حتى نصير كالجثث الميتة المتفسخة، نتأوه، نخور، نضرط، نتبول، ونتبرز على أنفسنا.

❖ ❖ ❖

جدران البهو الكهفي مقوسة، كأنها جدران ماسورة مجارٍ ضخمة عتيقة مهجورة مديدة بلا نهاية، كئيبة بلا حد سوداء حتى الاحمرار والاخضرار، تلمع بالدموع السيالة والمتجمدة، كأنها طرطشات باكية، ولطخات أنين، وأثار صرخات فزعة هاربة؛ ونحن نملؤه كله منضغطين فيه، تتجرف أجسادونا بلا إرادة منَّا، ملتحمة ببعضها، الرأس في الرأس، والكتف في الكتف، والساق على الساق تلتف، والأيدي على الخصور تحضنها، تلوذ بها فزعة، فيما أصوات ألسنتنا وقلوبنا وجلودنا وأيدينا وأرجلنا وبطوننا وصدورنا وعيوننا، ترج المعبد كله؛ بينما غربانه البشعة ووطاويطه تنهال علينا، تصدم رؤوسنا، وتفقئ عيوننا، وتثقب جماجمنا بمناكيرها الحديدية؛ ومن السقف المحفور المخرب الخرب القديم المتهالك، يكاد ينهار علينا بثقل السنين، تتهاوى وتهوي علينا حشرات غريبة وعجيبة شيطانية، كالمطر الوسخ

أو الحجارة المكسـرة المسـننة فتغطينا؛ وتزحـف إلينا الثعابين ووحوش أعماق المصرف الضارية المرعبة الضخمة، تشق لحمتنا ولحمنـا، وتشـد بعضنا من أسـفل فيغيب من يغيـب، ويطفو من يطفو، حتى نشـك أننا سـنصل إلى النهاية، وكيف لنا الصمود ونحن ضعاف جثث بلا عزيمة، فلو كان لنا شيء من العزيمة، ما جئنا راغبين استمداد القوة النفسية على تحمُّل الضعف والمسكنة والذل، والتمرن أكثر على لثم أيادي أسيادنا، وتحمل صفعاتهم وركلاتهم وظلمهم بنا.

والخدم الموتى الأحياء، بأسـمال قبورهـم الرمادية الممزقة الناسـلة، تظهر سـيقانهم الرفيعة المقوسة، ومؤخراتهم القبيحة البشعة الملطخة بالعار والوسخ، وظهورهم العظمية المحنية بخبث وكراهيـة وقبح مخيف، كأنهم شـياطين الموت ولعنات القبور خرجـت علينـا، يلعنوننـا ويضربوننـا بالعصي وأسـياخ الحديد، يريـدون قتلنا كلنا لو كان في إمكانهم، لكنهم مثلنا ضعاف خائرو القوى والهمة، بحاجة إلى المساعدة والحماية.

آآآآآآآآه.. الجدران الأنبوبية الحلزونية طويلة بلا نهاية، تلتوي وتتلـوى وتنحرف وتنجرف فجـأة، وتضيق وتغوص في المجهول، قديمـة قاسـية سـوداء، تغطيهـا الحفـر والثقـوب والطحالـب والعنكبـوت والوسـخ، والصراصيـر حمـراء وسـوداء وبيضـاء كبيرة رهيبة؛ تهمس في آذاننا كأنها تكلمنا وتناجينا وتعرفنا كأننا إخوتها؛ والفئران والعرس الممطوطة الجسـد، والجرذان الضخمة، والقنافذ البشـعة بأشـواكها الإبرية، والأبراص ذات الذيـول الطويلـة، والأصـوات المخيفة الهامسـة الآتيـة من أفواه

شـبحية، تمر بنا خطفًا وببطء شـديد، تجر وراءها الليل كله، تسحبه إلينا وعلينا وتغطينا به، حتى تطمرنا تحته؛ ونحن نخوض في الماء الأسـود اللامع بالجثث، والمتفجِّر بسـياط الحشـرات الساقطة فيه، والمبقلل في المكان الفارغ الذي سُحب منه فجأة واحـد منا، وغار إلـى العمق مطلقًا آهة بوهن مخجل، آهة ملذة، كـأنـه يغوص فـي الهناء، وليس الخراء؛ فيمـا نواصل الانجراف مع الغمر الشـنيع المنحدر بثقل إلى أسـفل، كأننا نهوي في بئر قديمـة مريعة، تصل إلى العالم الآخر، ومنه إلى الجحيم الأبدي؛ وفجأة ترتطم بوجوهنا جيوش وجحافل الذباب والناموس والبعوض والهاموش، وكل دقيق تافه آتٍ من العفن المخمر في كل مكان وركـن وسـقف وجدار، تنقـذف علينا كتلاً ضخمـة تندفع من فتحـة، بل من فتحات قديمة غامضة فـي الجدار فجأة، فتتعالى الصرخات الفزعة، ويتفجر البكاء المتوسل الحزين المكسور الخاطـر الواهن المتعب، يطلـب النجدة والخلاص، ولو بالموت؛ وكائنات الماء اللذج تتصادم تحتنا، وتواصل سـحب ما تسـحبه منا، والوطاويط والغربان والبوم والحداءات تتعارك فوقنا، تمزق بعضها، صارخة متسـاقطة فوق رؤوسـنا ووجوهنا؛ فيما تجمعت علينا كل الحشـرات، الطائر منها والعائم حولنا، والواقف على رؤوسـنا وأكتافنا وعيوننا، يأكلوننا ويقرصوننا مهما صرخنا؛ بينما الغمر الثقيل بخرائة وعفنه، ينحدر بنا إلى فنائنا الجحيمي، نتنفـس ليس الهـواء الثقيل الراكـد العفن، وإنما الهـوام اللعين الحارق لحلوقنا والناموس والذباب وبقية ما لا نعرف من الحشرات المريعة، تهاجمنا وتدخل في أفواهنا ومن فتحات أنوفنا، وتلفنا لفًا مخيمة علينا، تغطينا بطنينها المروع المرعب، العادي والمألوف

لنا، نحن الكسالى أبناء الوخم والرخامة والنطاعة.

ولا يكف الخدم الكارهون لنا عن احتقارنا مثلما يحتقرون أنفسهم أو أشد، ولا عما يلقونه علينا من حجارة، وعلب صفيح فارغة، وطوب وقش وأوراق، والمزيد من الخراء، عشرات من الخدم يقفون صفين على شاطئ نهر الخراء المسمم، كأنهم مساخيط مسحورة، وملعونة، بهياكلهم العظمية المقوسة الرثة المرعبة، كأنهم الموت عينه أو أكثر، يشتموننا ونرد عليهم بوهن وبكاء وضعف وذلة ومسكنة وتشحتف.

نريد بذلك ليس التخلص من هذا العفن طبعًا، فنحن نستمرئه ونحبه ونلتذ به، وإنما نريد أن نتقوى به عليه، ونتحد به، ونصير نحن وهو واحد كامل شامل متناغم، خراء في خراء؛ وكأنه بنا صار يحس ويشعر ويدرك.

❖ ❖ ❖

قد يقول واحد منكم حساس كريم:

ولماذا هذا كله، ولم يجبركم أحد ما في العالم عليه، هل نلوم الحشرات والطيور القذرة آكلة الرمم، لما يفعلونه بكم، إنهم لم يصيدوكم، ولم ينصبوا لكم شركًا، وليس بينكم وبينهم طار بائت، ولا شيء شخصي، إنما أنتم من جاء إليهم طوعًا، طالبين منهم ذلك، وهم يفعلونه لكم: يفقؤون عيونكم التي لا تبصر إلا الوسخ، ويثقبون رؤوسكم التي لا تفكر إلا في الضعف والخوف، بل لا بد أنهم يشكرونكم في سرائرهم إن كانت لهم سرائر، لأنكم تقدمون أجسادكم الهشة الخائرة الطرية لهم لحمًا يتغذون عليه، ويأمنهم من جوع، ويشبعهم حتى

التخمة؛ لماذا هذا الهوان كله؟ أليست الشجاعة والعقلانية أسهل وأحسن وأكرم؟ طالما أنتم في الحياة فعيشوا كما الخلق جميعًا في نظافة واستقامة؛ نعم المخاوف موجودة؛ لكن مواجهتها أكرم من الهرب منها إلى ما هو أشد منها خوفًا وهولاً كهذا! ما بالكم كيف تفكرون؟!

نعم قد يقال هذا وأكثر من هذا، لكننا نحب هذا، ونريد هذا وأكثر من هذا؛ فالضعف طريق صعب، نعرفه ونتحمله ونريد الاستزادة فيه ومنه، حتى نصل إلى كماله التام اللعين المميت الفائق للموت؛ هذه طريقتنا في الحياة، وهذا طريقنا الجحيمي، ولا ولن نرضى عنه بديلاً؛ فاتركونا نخوض فيه ونوغل، حتى نصل إلى المنتهى المذل الحقير؛ وبالمناسبة نحن لا نفعل هذا اعتراضًا وتذمرًا، ومن ثم ثورة على وجود الضعف، رغبة منَّا في إنهائه من الأرض، ومن ثم العيش بكرامة؛ لا أبدًا، نحن لا نعرف الثورة ولا الاعتراض، ولا نأتي بسيرة في كلامنا الصامت بكلمة «لا» مطلقًا؛ إلا بمعنى الموافقة؛ إنما نحن جنود الضعف التام الشامل، دون انفعال أو افتعال؛ إنه طريق نعيمنا المذل، وطريق الالتقاء بحبيبنا الضعيف الأضعف الذليل الأذل سيدنا القابع في جحره تحت الأرض؛ ينادينا بوهن، ويطلبنا بإلحاح منوّم ساحر لذيذ لذة ما ورائية رهيبة.

وقد يصيح أكبركم قامة، وأكرمكم منزلة، منتفضًا للكرامة الإنسانية، ويطالب بمنعنا من مزاولة ضعفنا هذا، ويأمر بتقييد أيدينا وأرجلنا من خلاف، وسجننا في مكان بعيد؛ قلعة قديمة مثلاً، يحشرنا حشرًا بين جدرانها، فنملأ غرفها المكتومة

تحـت الأرض وفوقها ، ونملأ السـراديب المعتمـة والممرات، حتى تكتظ بأعدادنا المهولة، ويضربنا جنوده الأشـداء الشـجعان، بل يتفننون في تعذيبنا ، قاصدين بذلك حثنا على التوبة والرجوع الكريم عن سخفنا؛ كما تفعل السلطات مع المتمردين على حكمهم.

ثم لما لا يجدون منا اسـتجابة، بل قبولاً للتعذيب، واستلذاذًا بالإهانـات، مهمـا تتـرى علينا بـكل صنوفها؛ يسـقط في أيدي الكبير عالي المقام المفكر القلق على النوع البشري، والراغب في الوصول إلى نموذج أعلى للإنسانية، يكون فيه الرجال أقوياء الأبدان بارزي العضلات، طوال الرقاب، شامخي الهمة، أذكياء، شـدادًا على أنفسـهم، رحماء بغيرهم، مثقفيـن، علماء، وأدباء وفلاسفة، تنعم الأرض بوجودهم، ونساءهم الجمال ذاته، والرقي عينه، أمهات رقيقات عالمات، يقفن بجوار الرجال كتفًا بكتف ورأسًا برأس كرامًا عظامًا عالين.

فيأتي إلينا، مارًا بيننا، ونحن مطروحون في ضعفنا، وهولنا المذل على أرض الأقبية الوسخة الملوثة بالمخاط والخراء والدم؛ ويحدثنا حديث الأب الرحيم، ويطلب منا الأخذ بالكرامة وحب الحكمـة والثقافة والنظافة ونبذ الضعـة والخوف والهوان؛ فهي لا تليق ببشـر القرن الحادي والعشـرين هذا؛ لا سيما وأن الأرض كلها باتت بيتًا واحدًا، بل غرفة واحدة، بشرًا متقاربين، يحاولون توحيـد الصفوف واللغات والأهداف ويطفرون خارج الأرض، إلى الكواكب الأخرى، رغبة كريمة منهم في اكتشـاف الفضاء والسـير فيـه وسـكنه، يطلبـون الأعالي كمـا تطلبها النسـور المحلقة.

ويهمس لنا بحزن:

كيف تجعلون القدرة على تحمل الضعف، وسيلة للمزيد منه، بدلاً من تجاوزه والوصول إلى القوة؟!

فلا نجيب؛ فيرفع صوته لتدخل كلماته رؤوسنا:

أنتم تائهون، تبحثون عن ضوء خارج نفوسكم وهو في أنفسكم؛ أخرجوه كما تخرج البذرة شجرتها من قلبها؛ أخرجوه كما تخرج الوردة عبيرها من أوراقها، ليضيء لكم بصائركم فتروا حقيقة الحياة الرائعة؛ التي هي النمو إلى أعلى والازدهار الفرح بالوجود.

فنهز رؤوسنا طاردين كلماته تلك من آذاننا؛ فيصرخ فينا:

إن كنتم أغبياء، مرضى ومساطيل؛ فالمسطول إذن في ذمة الصاحي، كما يقول المثل ولا بد من جعلكم تفيقون وتغادرون الغباء والضعف.

فنصم آذاننا؛ فيكلمنا باللين والمنطق والعقل، مقدمًا لنا الحلول الناجزة المنجزة الواقعية، مبينًا لنا ما نحن فيه من مجانية وتضيّع لطاقتنا وطاقة الآخرين فيما لا يفيد بل يضر؛ فنحن نموذج سيئ للبشر، وهو يخاف على الحاضر والمستقبل منَّا.

ويطالبنا بأن نكف عن ضعفنا وهزالنا؛ يقول خاطبًا فينا:

أبنائي أصدقائي إخوتي أخواتي، يا من تسمون أنفسكم ضعفاء أنتم لستم كذلك، فالقدرة على التسمية في حد ذاتها قوة، فتسمية شيء بأنه كذا أو كيت، قطع له من المادة الغفل وفصله عن غيره، ومن ثم إظهاره من العماء واللا تحدد، فيوجد مستقلاً بارزًا شامخًا، له حياته الخاصة المميزة؛ نعم هذا الإظهار

نسبي، فالشيء أي شيء في حالة نمو دائم وظهور وتفتح دائم، أي أنه في حالة دائمة من الظهور والتكشف من العماء والتسمية إذن تسمي ما يظهر منه فحسب، إذن هي بقدر ما تظهر تخفي أيضًا، لذا لا بد للفكر من أن يكون متحركًا ومتغيرًا مع الواقع، حتى يراه في حركته الموارة الدائمة والدائبة المتجددة الخلاقة.

إخوتي يا من تسمون أنفسكم ضعفاء وأنتم لستم كذلك، فالقدرة على تحمُّل الضعف قوة والصبر قوة على تحمل عمل نقوم ببنائه والعمل عليه حتى يكتمل؛ وليس هو الكسل والقعود عن الفعل؛ وحتى الكسل والقعود عن الفعل، فعل في حد ذاته، نقوم به بإزاء شخص ما، أو فكرة عن أنفسنا وواقعنا والعالم؛ فعندما يقرر الواحد أن يكون سلبيًا مهزومًا بعيدًا عن حفل الحياة؛ يؤكد بذلك وجود الحفل؛ لكنه يعترض على طريقة تنظيمه وينصرف عن المستفيدين من الحفل الطماعين الأنانيين؛ مفضلاً النأي بنفسه عن الابتذال والتذلل لهم وهم صغار في نظره.

أبنائي يا من تخفون قوتكم وتظهرون ضعفكم، ضنًا بقوتكم البانية المشيدة المزهرة في حديقة العالم، اعتراضًا منكم على العالم وتنظيمه بهذه الطريقة غير العادلة؛ إنني أقدر موقفكم، إنه قوة، فالعزلة والانسحاب من العالم الشرير موقف؛ اتخذه الكثيرون من قبلكم، لكنهم كانوا بهذا يرسلون رسالة الاعتراض للعالم، حتى ينتبه لنفسه السادرة في غيها لا تلوي على شيء.

إخوتي نحن لا نملك أسمى من عقولنا ومنطقنا في الفهم؛ إن مهمة العقل هو هدايتنا إلى الحياة القوية والمزيد منها وتنميتها وملؤها بالخير والسعادة.

إخوتي يا من تسـمون أنفسكم بالضعفاء، انظروا جيدًا، إن الضعف طريق كله مشقة ومهانة وإذلال وسخف وتعب على تعب، بينما القوة والشجاعة بالمقارنة بالضعف تعتبر راحة، كل خطوة فيهـا نمو وازدهار، والخطأ فيها صواب لأنه يقربنا من الصواب؛ ومعاناتها ليسـت قـدرًا مقدرًا من قوى غامضة سـحرية ما ورائية أو أرضية متآمرة علينا؛ وإنما تجربة نشـارك فيها وتثقلنا وتقودنا إلى الفهم، ومن ثم السيطرة والتحكم والحياة الكريمة العاقلة السهلة المرفهة الشجاعة، حيث يصير الإنسان طفلاً لاعبًا مرحًا حياته الغنج ذاته.

أبنائي يا من تسـمون أنفسـكم الضعفاء، انظروا حولكم، سـترون إخوة لنا في الإنسانية شعوبًا بالكامل، كانت في حال السـوء والضعف، بـل دمرت بالقنبلـة الذرية، لكنهـا قامت من الرمـاد المشـتعل وقاومت وصارت فـي مصاف الـدول الكبيرة العزيزة الشامخة؛ وانظروا إلى التاريخ، هل ترون جدودنا العظام وحضارتهـم التـي مـا تزال تقوينـا وتلهمنـا؛ انظروا إلى الإنسـان المتقـدم العقلانـي الحديـث الآن؛ لقد كافحت شـعوبه الظلام ونهضت تعلن حقوق الإنسان والمجتمع الديموقراطي التشاركي اللا مركزي التعاقدي الحر؛ انظروا في كل مكان تجدوا الناس تعمـل وتطالب بحقها في القوة والمنعـة والتقدم، ينبذون الخوف والضعف ويأخذون بكل أسباب القوة.

سـيداتي سـاداتي نحن نحبكـم، أنتم جزء منـا ونرى بكم التقدم والازدهار..

فهيا معي انبذوا الضعف والاستسلام للجهل والكسل، تعلموا

كافحـوا الضعف في كل صوره ولا تأكدوه وتتحدروا معه إلى مهـاوي الموت والخسـة؛ اطفروا واصعدوا إلـى عليين ولا تهبطوا الحفـر ومجـاري الصـرف النتنة، تبحثـون عن المزيد مـن الذلة والمسكنة.

إخوتـي الكـرام إن قانـون الحياة يقول: كل مطمور يسـعى للنور والظهور..

فانظروا تجدوا الحياة كانت بلا شكل، فتطورت من حالتها الجنينية الهلامية الضعيفة غير المتشـكلة، إلى حالة الشكل، فتجزأت وتكاثرت وملأت الماء القديم في المحيطات العظيمة، أسـماكًا ووحوشًـا في الأعماق؛ ثم خرجت من الماء إلى الأرض فرأت السـماء العالية، فطـارت إليها خالقة لهـا أجنحة، ومن لم يقدر، استعمل عقله وصار به يجوب كل الأقطار.

إخوتـي الحياة هي النمو والازدهار والقـوة، كونوا إذن حياة قوية عاقلة كريمة، عيشـوا كرامًا تحت ظل العلم، علم الوطن الصغير والكبير وعلم الكرامة والحب والتقدم وعلم الإنسـانية كلها على كوكبنا الصغير العظيم الحي.

لكننـا نصمت تمامًا كأنه يكلِّم نفسـه، أو يكلِّم من بهم صمم، وإن رددنا عليه فلنبعد كلماته عنَّا، خشية تلويثها أرواحنا الهاربة منا، فنردها بالسـخرية منه، ونطالبه بأن يعذبنا أكثر، أو يتركنا مسـجونين إلى الأبد، بعيدًا عن البشـر؛ فنحن نعشـق سكنى الحفر والقبور، أو يقتلنا كلنا بقنبلة نووية ويطهر الأرض منا، إن كان جادًا في تنقية الجنس البشري من شوائبه وعوالقه وهاموشـه؛ فنحـن لن نتزحزح عما جئنا به وإليـه؛ الضعف والذلة

والمسكنة؛ وعليه توفير جهده الكريم لمن يستجيب من البشر الآخرين، فهم بحاجة إلى جهده وعلمه وثقافته ونموذجه العالي؛ أما نحن فلا.. لا.. لا.

❖ ❖ ❖

ويواصل الخدم الملاعين شتمنا وضربنا واحتقارنا وحشدنا يترجرج في سخام المقبرة المهجورة ويتخبط في المصرف المسمم، تحته وحوش المستنقع تفترسه وفوقه الحشرات وضواري الطيور آكلة الرمم وتغطيه سحب البخار السميكة العفنة، يغيب أفراده في القيء والدوخة والصرع، يصرخون ويبكون بوهن فاتر ويدفعون بعضهم وينحدرون في البهو المظلم المخيف، كتلة واحدة هائلة تمور في بعضها مختلطة بالنفايات والسم والخراء والبلغم والسخام اللزج الثقيل الرهيب المروع، وأصوات عراك الطيور وطنين الحشرات واصطكاك الماء الثقيل في الأجساد، يحيط بها، يبتلعها، يلفظها على سطحه منهوشة مقطعة صارخة.

وأخيرًا يصل المصرف الثقيل إلى منتهاه ويلقي مخلفاته على شاطئه المزبل؛ فإذا بنا نتساقط فوق بعضنا، على بعضنا، في بعضنا، كتلة واحدة لذجة مهروسة ومدعوكة؛ تنزلق الرؤوس أسفل الأقدام والأقدام فوق الرقاب والرقاب ملوية ومثنية ومكسورة وغائصة وقصيرة ومهينة ومهانة وحقيرة، روائحنا قبرية عفونتنا ما ورائية تحتية سفلية؛ لا نعرف ولا نريد أن نعرف، من مات منَّا ومن بقي فينا، فلا فرق بين هذا وذاك.

المزبلة العظمى

لا هواء يدخل هنا أو يخرج، رقود عفن ونتن وزحام من الزجاج المكسور والحجارة والحديد والقش والإبر تخترم كعابنا، الحافية وغير الحافية، فنتحمل؛ فهذا طبيعي لنا، اعتدناه؛ فالألم ضروري لنا، هو حياتنا هناك بين الناس؛ نتوجع منه، نعم لكن نحتمله نبكي منه نعم لكن نلتذ به، كأنه الشهد طعمًا؛ زجاج قديم مكسور ومشطوف، كأنه الخناجر المزروعة في الأرض، نخوض فيه عميانًا، يدفع بعضنا بعضًا، وتتعالى الآهات وتنهمر الدمعات وتتساقط الأجساد بكاملها لترشق بالزجاج والإبر وأسياخ الحديد المكسورة المسننة، فيتمزق الساقطون وتتناثر دماؤهم فيأنون، بخفوت مذل وملذ وممتع، متعة ما ورائية، فيما يدوس عليهم ويهرسهم قطيعنا الأعمى، الضارع المنادي، المهلل، المطين الملبخ، البائس، المشوه، المتعرج والممتد إلى الوراء، حتى البوابة الأولى والمنحدر إلى الأمام، داخل البئر البركاني، الخامد الهامد السحيق؛ تمر بنا جبال وهضاب من الزبالة والقمامة قديمة، قدم الدهر، مهروسة ومعجونة ومسواة بالأرض، جامدة خامدة، سهل السير عليها وأخرى ناشفة حجرية كالإبر وحد الحجر وأخرى لينة طرية، تغوص فيها الأقدام وأخرى سائلة يغور فيها من يطؤها، كأرض الربع الخراب الشهيرة، يقف عليها العصفور فيغرق؛ لكن من يغرق فيها، سرعان ما يخرج منها، زاحفًا بين الأقدام وتحتها متحملاً الهوان، يخرج كما خرجت

كائنات الليل الأولى، من اليم الأول، بادئة التطور لكائنات الأرض.

يخرج شبحًا يشبه البشر، بشر على ما تفرج وهي لا ولن تفرج؛ ونحن لا نريدها أن تفرج، بل نريد الأسوأ والأسخف والأضعف، فهذه رسالتنا على الأرض.

لماذا؟ لا نعرف ولا نريد أن نعرف ولا نريد أن يعرِّفنا أحد؛ نحن كده، مافيش فايدة.

ولكن كيف نقر بعدم وجود فائدة، في الوقت الذي نقر فيه بعدم معرفتنا؟!

أليس ثمة مكر في هذا؟! ونوع من إغلاق صندوق اللغز على لغزه؟! وإننا مكارون.

نعرف ونخفي!! نعم نحن نعرف ونخفي ولكن الأمر بالغ التعقيد ولا يمكن فهمه إلا لمن خاض طريقنا الصعب؛ ومع ذلك سنعطيكم نبذة عن لغزنا، غير القابل للحل، سنفتح قليلاً صندوق بندورا، ولن نخرج لكم طبعًا الأمل!

الكون غامض من ناحيتين، إن كان مخلوقًا أو أبديًا؛ في حالة خلقه، سيقتصر سره على خالقه وهو لن يمكنه كشفه لنا، ليس ضنًا منه علينا، نحن مخلوقاته؛ ولكن لأن المطلق لا يمكن أن يحتويه النسبي، فنظل عاجزين في جهلنا.

وإن قيل إذن لتكن الثقة في الخالق والاطمئنان على وجود السر معه، كافيًا لمنع قلقنا وحيرتنا؛ سنقول كيف تجتمع الثقة مع الجهل؟! فمن أدرانا بوجود الخالق؟ ومن ثم وجود اللغز؟ أليس

من الاحتمال أننا واهمون! وبفرض وجود خالق، فسنكون، إذن شـيئًا مضافًا إليه ولسنا بذاتنا؛ وإن قيل إننا به نكون، مثله آلهة في صورة بشرية؛ سيعني هذا أننا على صورتين إلهية وإنسانية، سر وعلن؛ وسيعني هذا انتقاصًا من الألوهية، لأنها سر لن ينكشف لذاتها هي؛ ويصير الخالق كالمخلوق غير قائم بنفسه.

وهب أننا قائمون بأنفسنا، وليس ثمة سر يحيط بنا، عارفين بالـكل، آلهة مطلقة؛ فما قيمة هذا؟ مـا قيمة الحياة المكتفية بنفسها لا تريد شيئًا ولا ينقصها شيء ثابتة قائمة فحسب تنظر إلى نفسها دومًا وعلى الإطلاق؟! يا للملل؛ هنا تتجلى حقيقة الحقائق والطريق الأول والأخير: الضعف.

ومـن الجهـة الأخـرى؛ إن كان الوجـود بذاته وليـس بغيره، تتسـاوى فيـه المعرفـة والجهل والقيـام والقعود والفـرح والحزن والصمت والصراخ والحي والميت؛ إذن لماذا ندين الضعف؟ لأنه مؤلم! القوة أيضًا مؤلمة، حتى وإن كان ألمها أقل؛ ثم من أدرانا في هذا العماء، أن للضوء قيمة؟! إذن نحن محكوم علينا بالجهل المطلق؛ ولم نغادر كهف أفلاطون قط ولن نغادره مطلقًا، مهما حاولنـا بالمعرفة الجزئية الصبورة المكافحة في الوجود ومعه، ليتكشف لنا تدريجيًا كما تفعل الشمس كل صباح.

وإن قيـل إن هـذا يعنـي أن الوجـود مـرن ومفتـوح علـى كل الاحتمـالات، لا يقيـن فيـه ومهيئ لفعلنـا وأننا من ثـم أحرار، لا يفرض علينا شيء، فكل شيء متغير ومتحول ولا يحتم النكوص والضعـف وإنما على العكس، يوجـب اتخاذ القوة طريقًا والأمل والفرح بفرصة الحياة وهي فرصة نادرة، يسـلمها كل جيل لمن

يأتي بعده، ونشـارك في بهجة اللغز وجماله، بدلاً من الانحطاط به هكذا، والتسفل والهوان الوجودي.

لمـاذا لا تتدفعـون معنـا لبنـاء مجتمـع الأحرار المتسـاوين؟! الضعيف فيه قوي بغيره، الجاهل فيه عالم بغيره، نؤازر بعضنا، نتعلم كل الفنون معًا، نعيش معًا، نلعب معًا، نصير في بيتنا كلنا معًـا، ولمَّا يحين موعد انصـراف أحدنا، نودعه بحب وكرامة، ونحفظ ما تركه لنا من خير وجمال ونوصله إلى القادمين بعدنا وتصير الأرض زاهية بنا... الخ الخ.

سـنصمت عـن هـذا الجـدال العقيـم؛ لأننـا نعتبركـم بهذه الردود غير العقلانية، تدافعون عن أنفسكم وأنكم متورطون، تدفعكم إرادة البقاء على قيد الحياة والبقاء الطويل، تلك الإرادة غيـر المفهومة وهذا نوع من الضعـف، الذي هو في صورة القوة؛ نعـم هذا هـو ما نعرفه ومـا فتحنا الصندوق لنخبركـم به، أنتم أيها الأقوياء مخادعون، في كل نأمة من قوتكم وكاذبون على أنفسكم، فرحكم مفتعل ومعرفتكم تدليس وكذب وتخبطون كالأطفال خبط عشواء، أنتم الزيف نفسه.

وهـب أنكـم وصلتـم إلـى المجتمع الـذي تصفونـه وحققتم الجمال في كل شـيء وها هو إنسـانكم القوي، وافر الصحة، الصـادق الجميل الخير الرائع الرائق، كالماء الصافي؛ وها هي شـوارعكم جنة، وحدائقكم غناء، غاصة بالببغاوات والبلابل والمحبين والعشـاق والموسـيقا؛ ها أنتم صرتم ملائكة تمشـي على الكوكب الأخضر السابح في الفضاء المعتم، لا بل إنكم سكنتم كل الكواكب واستعمرتم الفضاء المديد الهائل وطالت

أعماركـم وصرتم خالدين، ضاحكين لاعبيـن آمنين؛ هب أن هذا الحلم الجميل ولا نقول السخيف، حصل وتحقق كله وزيادة؛ وصارت الحياة وليس الفناء هي السائدة والمسيطرة والمتحكِّمة والجمال يسـير بينكم على قدمين مزهوًا سـعيدًا جميلاً خارقًا وعاديًا ومطروحًا على قارعة الطريق، زاهدين فيه، شبعانين منه ومهملينه حتى.. أوووه يا للملل..

نقول ببساطة ما قيمة هذا؟ وما وجه اختلافه عن الموت والفناء والضعـف؟ إنهـا مجرد طـرق للتنظيم الاجتماعـي لا غير، جمالاً كانت أم قبحًا؛ سينتظركم هناك الملل الأمل، فإذا بأكثركم إن لـم يكن كلكم، ترغبون في الفناء والنوم الأبدي والراحة، راحة الراحة، الراحة العظمى، التي هي الهروب من الملل، الذي يذكِّركم بسخف ما فعلتم وما أنتم سوى أطفال يلهون في الفناء.

إن أجيالكـم التي ستنشـأ في الرفاهية والعـز والجمال، لن تراها كذلك، وستعتبرها عادية وسخيفة ومملة وتندفع للمزيد من الجمال، فتتناحر وتتحارب وتتقاتل وتدمر بعضها؛ كما نفعل الآن.

وهـب أنهـم أكملـوا مسـيرتكم وصـار الجمال جبلـة فيهم وطبعًا، لا يردونه وطبيعة قاهرة وليس اختيارًا من متعدد وحرية، إذن سـيكونون نائمين وعما يفعلونـه غافلين، فهل يدرك النحل أن فضلات جسمه، التي يتخلص منها ليواصل الحياة عسل لذيذ الطعم؟!

أنتم لا تريدون أن تصدقوا، أن الإنسان خطأ!!

أمـا نحن فنمثل الحق والحقيقة، التي هي الضعف، الذي هو

صليبنا؛ نعم نحن ندين الوجود والحياة؛ ولن نتخبط بين الأمل واليأس مثلكم؛ لقد اخترنا اليأس وراهنا عليه؛ جبنًا من الآخر يعني؛ إننا نضحي بأنفسنا، ليس لأننا لا نريد أن نكون مثلكم أنانيين، فنحن نعرف وهم الأنانية؛ ونسخر من الوجود والحياة، ولا نتكالب عليهما مثلكم.

إننا وبوضوح ننتقم من الوجود والحياة في أنفسنا؛ نحن الحقيقة الأصلية الواضحة اللا لغز .. التي ترفضونها: الضعف.

❖ ❖ ❖

كل شيء مهدم حولنا وتحتنا وبجوارنا، كحياتنا المعتادة الأليفة لنا تمامًا ونور النهار إن كان هذا نور نهار، يصلنا، لا ندري كيف، سائلاً لزجًا، كأنه دخان لحريق قديم يتخذ أشكال عفاريت ومردة وساحرات؛ وكل كائنات الخوف، تتنزل علينا فاترة عيية غبية، وصرخاتها، لها رنين، صداه يتردد في آذاننا، كأنه حلم وسنان، يمرون بيننا كما يمر شرد الصيف، ريحًا خبيثة، تثير عفن المزبلة العظيمة، فتتصاعد إلينا رائحة حريق قديم، خانق، فندوخ ونتطوح ونتضارب ونتعارك زهقانين دون زهق، زهق مائع فاتر ضنين، خائرين، نتهاوي، فتدوسنا أقدام القطيع الحافية القذرة، ذات الأظافر اللبنية اللينة الهشة المتقصفة المدماة، والمنتعلة الأحذية الغليظة العفنة؛ وقطيعنا الأسود، يواصل طريقه في الغابة السوداء المحترقة الخربة ذات الأشجار الشبحية المخيفة، أشجار من زبالة، تقف عليها البوم الغامضة، بعيونها المرعبة الكبيرة المستديرة، تحدق فينا بحدة حانقة، والغربان الكبيرة الخشنة، متوترة فوق فروعها، تلتف

عليها الحيات المجلجلة، وتقبع تحتها الضواري الملعونة، حراس الخراب هؤلاء، ينظرون لنا بقرف واشـمئزاز؛ ونحن منكسون، نشـق طريق ذلنا معًـا، في خطوة منتظمـة متواصلة، لا تحيد ولا تنحـرف عـن مقصدهـا المعتاد السـنوي، بلا وعـي نمضي، في الطريق ومجاهله، مواصلين القرب والاقتراب من سـيدنا الذليل الأذل الحقير الأحقر أبو الضعف كله.

يقودوننا الخدم من أمامنا وجوارنا، يحثوننا على السـير دون توقف لالتقاط الأنفاس أو الجلوس قليلاً للراحة، بالشتائم المقزعة المجرمة الفاجرة، نتونس بها؛ فلطالما شتمنا ومسحت بكرامتنا الأرض، إن كانت لنا كرامة، فنحن أجلافًا خشنين وناعمين، وعنينين؛ ويضربوننا بأياديهم وبالعصي وأسياخ الحديد والأحذية على رؤوسنا ويسومونا سوء العذاب؛ وما العذاب إلا نحن وما الذل والهوان إلا نحن، ما الخيبة والعار إلا نحن.

منَّا من يسـقطون أرضًا فتلتم عليهم الحشـرات السامة لامعة بالوسـخ ومنطفئـة، وذات الأرجل الطويلة، والقافـزة هنا وهناك بسرعة صاعقة كأنها الرصاص المنهمر من كل حدب وصوب، تأكلهـم أكلاً فـورًا، فيقومـون نافضـي أنفسـهم ورؤوسـهم واقفيتهـم، يرتجفون متشـنجين وأياديهم تضـرب في كل اتجاه فزعين صارخين.

فيما يواصل المضي جيشـنا وجحافلنـا الممتدة خلفنا، حتى المرحلة الأولى، حيث ما يزال أغلبنا فيها، يجاهدون نهر الخراء البشع البشيع ونسمع صراخهم بعيدًا واهنًا.

ومن بين الأشجار السوداء المعتمة المخوِّفة والمخيفة كأنها مشانق تعلق عليها جثث الموتى.

تهاجم جمعنا المرهق المتعب الخائر، الذئاب عالية الظهور، عظيمة الفكين والأنياب والمخالب، والكلاب حمراء العيون ممطوطة الجسد سريعة كالريح، والثعابين الضخمة المبرومة الطويلة بلا نهاية، بوجوهها المنتصبة في الفراغ الموحش كالكابوس، تتقذف مندسة في لحمتنا ولحمنا، والضباع قصيرة الأقدام والجزع طويلة الأيدي والقد بشعة الخلقة، تنهش أكثرنا ضعفًا وتجره إلى جحورها وتمزقه وتلغ في جسده النتن بأنيابها وتطحن لحمه المر وهي تبلع بصعوبة وقرف، لكنها سرعان ما تتقيئه، فرائحته الخرائية الفظيعة، باتت حصنًا له، فهو ليس مسممًا، بل بات السم نفسه، فإذا بالضواري المسكينة، بكل أنواعها، تنهار وتقيء بجنون وعنف، كأنما حلوقها احترقت وبطونها ذابت وتموت ساقطة رافعة أرجلها لأعلى وبطونها تنتفخ وتتضخم وتنفجر في ثوانٍ معدودات.

ونمضي شاعرين بفرحة اللقيا، فنحن في طريقنا إلى أبينا المذلول الأذل، حامينا وملهمنا الصبر والتحمل، العائش أبدًا وسط كل هذا وأسوأ منه ومما يمكن تخيله، هناك في أغوار الأغوار السحيقة الغامضة النهائية، منبع النبوع كلها.

المزبلة بلا نهاية، الكثير منا يتساقطون، والآخرون يدوسونهم ويمرون عليهم، عادي، فلا أحد منا يعاون أخاه ولا يصادقه ولا يحبه، بل يخونه ويكرهه ويذله ويهينه ويشي به للسلطات، وغير السلطات، يشي به ويفضحه ويجرسه هواية؛

هذا هو السـائد بيننا ، فنحن نحتقر بعضنا احتقارًا طبيعيًا جينيًا ونستلذ إذا أهَنا الضعيف منا ، ونستلذ إذا أُوهِنا وذللنا ونخاف إذا شعرنا بشيء ما من الكرامة وعزة النفس والرغبة في أخذ حقنا بأيدينا والدفاع عن أنفسنا.

لـذا نأتي هنا لنتطهر ونقوي أنفسـنا بالـذل على الذل ونصير الأذلاء الكاملين الخالصي الذل.

ريح ممرضة عفنة لا تفتأ تهب علينا ، فننتشي بها كما ينتشي المدمن بالمخدر السام، كأننا اتحدنا بالمزبلة العظمى، فصرنا زبالة ضمن زبالتها ، زبالة متحركة مسخمة ومغبرة ، يكسوها الخراء والبثور والدمامل والدم المتجلط والجروح ورائحتنا الخبيثة امتزجت واتحدت مع رائحة المزبلة العظمى القديمة ، فصرنا ذات الرائحة والريح وروح ونفس الخبث والقرف وفساء الجثث الميتة العفنة والخراء والموت والعتمة القديمة ، في سـراديب الكهف المنحدر إلى أسـفل، فـي بئر الضياع والعفـن، نوغل فيه إيغالاً بلا نهاية...

يشـتكي كل منا حاله ويبوح بسبب حضوره للتطهر وينادي ويناجي الأب الذليل الأذل الحقير الأحقر، ليس للخلاص منه وإنما ليسـلينا في طريقنا الأغبر المغبر الغابر هذا؛ يهتف أحدنا بخور مقطع للقلوب الخائرة المذلة:

❖ ❖ ❖

كاهن الخوف

سيدي ولا أقول سيدي حين أقولها ، لأنك لست سيدًا لي ولا حتى لنفسك وإنما أقولها لأنني المسود والوسواد الخالص، أنا ما جئت إليك ، فمن أين لي بجرأة المجيء إليك وأنا خائف منك؛ إنما أنت من ناداني وطلبني وجذبني وجاء بي؛ وإنني لمرعوب خائف منك ومني ومن كل شيء يمر بي وأحس به وأسمعه وأتخيله؛ مكاني الصمت الصموت، حركتي الهرب ذاته، ألوذ بكل خبيء، تحت الأغطية والأسرَّة والجحور والشقوق؛ ولو وضع الخوف ذاته في كفة وأنا في الأخرى، لمالت كفتي، ولو كان ثمة جائزة تعطى للخوف، لتنازل عنها لي، فأنا متفوق فيه وعليه، لا أبرح مكاني ولو جبت الأرض كلها ، أتبول ليس إراديًا أو لا إراديًا وإنما ينزل مني بولي وخرائي خوفًا من إمساكهما والتحكم فيهما؛ لست مريضًا يا سيد المرض، فلو كنت كذلك، لكان ممكنًا شفائي وكان خوفي لسبب خارج عني، أو مني، بينما أنا الخوف الخالص النقي الممتاز والمميز.

لا يا سيدي، ليس وجودي بين الناس لأستمد منهم الخوف وأستحلبه ولا أخرج في شوارعهم الليلية لتخيفني عفاريتها وأشباحها وبشرها ، فأنا الخوف ذاته، ليس لغيري فحسب وإنما لي أيضًا ، أنا فنان خوف، ضليع في أجروميته، عبقري، فذ، فلتة من فلتاته النادرة، تتجمع في نفسي المرعبات الكبيرة والصغيرة، الظاهرة والباطنة، دون سبب ودون استدعاء مني

لهـا ، هي تتخلـق وتتكـاثر ، لأنعم بها وأترقـي في مضمار الوهن الوهيـن ، حتى ارتعـادات الخوف أخاف منهـا وتخافني ، فإذا بي السـكون التام وحتى سـكوني المثالـي هذا يخافنـي وأخافه؛ وأنه لأحسـاس عميق مظلـم ثقيل بالغ الثقل رازح على أنفاسـي ، كأني قبرت وتركني أحبابي وأهلي وأهيل عليَّ التراب الكتيم المكتـوم؛ ريح غامضة ، غير مرئية تهب عليَّ ، بصور ما ورائية ، فإذا بي في طريق مقطوع من نصفه ، تقطعه حفرة يتدفق فيها ماء شـلال هائل لمحيط لانهائي ، يملأ المسـتقبل كلـه؛ وأنا وحيد أتأمل بفزع نهائي النهاية؛ كأنما الكون ملعبك ملخبط ، أسفله أعلاه وأعلاه أسفله ، مرتبكة الأشياء فيه ، زهقانة ، حائرة ، تريد الخـلاص بالمـوت ، الذي يترى في صور عابرة ، لحبال المشـانق والسـيوف الباتـرة والمقاصل وغـرف الغاز والمحـارق والحجارة المتهاوية وانهيارت الجبال؛ الكون كله يسـيل ، يفقد صلابته ، ينهـار علـيَّ بعضه ، ينضغط ، يضيـق عليَّ كله ، يضغط رأسـي وأكتافـي وجانبـي وبطني يزهق روحي؛ فكأني بيضة مهشـمة ملقاة على أرض خالية معتمة تسـقفها سماء حمراء ليلية ، قمرها نصفي مشطور ميت وسحب بحيرة مائعة من ضباب عجيب مريض يمرضني؛ فإذا بي حشـرة في شرنقتها ، تشقها ، تحاول وتحاول ، لتخرج منها ، ولكنها لا تخرج منها ولا تبقى فيها.

فيما أنت بصوتك المرعب الوهين تناديني وبسـحرك تهديني وتجذبنـي أنا الحشـرة مـن شـرنقتها وتطيرها فتـرف بأجنحتها الوهينـة لتنعـم بالنظـر إلى جحـرك الجحيـر المجحـور الدفين المدفـون فتتفتت وتتهـاوى وتتخلق منها روح للخوف الأخوف فإذا

بي في ركابك أسـير يا أميـر فاقبلني لديك روحًا تخاف الخوف سيالة به ناعمة فيه مطمئنة له اطمئنانك به.

جئت بي تسحبني غيرة مني يا غيور، لتفوقي عليك، فأنا في العالـم الظاهر، بين الناس، فـوق الأرض مثلك، بل أفوقك وأنت في الباطن محمي، لا تصارع ولا تناور، أنا في الآتون، أُعلي شأن الخوف، أحمله على ظهري وفي عيوني، أنشره وألهم به الآخرين، أدمر القلوب القوية، أسَيِّل الدموع من عيونها والأنين من الحلوق، أنا نواح الموتي الأحياء على قبورهم وفيها.

تأتي بي الناس لأبكيهم على أنفسهم وفقيدهم، فأفعل فيهم فعل المرض بالسليم، أعذبهم عذاب الجحيم ولا أتركهم إلا وهم صرعى الجبن الجبون والخوف الأخوف، يرتعدون كرهًا للحياة ونسائمها والدنيا وحلاوتها.

أمشي بينهم باكي العين، مرتجف اليد، أتنهد الأسى والحرقة واللوعة، موحيًا بذل الذل التام، فتتكسر الظهور الصلبة وتتهدم الصروح المشيدة والأبنية العالية.

أنـا الفاعـل بك وفيك، في بعدك والمبشـر بـك في غربتك، جالب القطيع كله إليك.

أنـا روح الخـراب، تطـوف علـى العيـون فتعميهـا والألسـن فتخرصها.

مـا أن تتبدا صورتـي الغامضة الضعيفة المهزومـة المرتجفة للجمـوع، حتـى يبكـي أطفالهم ونسـاؤهم ورجالهـم ويرفعوني ويحطوني فوقهم، لأنشـر فيهم حب الخوف والضعة والمسـكنة

والخور والرعب من الدنيا وبلاويها والشجاعة وتهورها ومخازيها، والكرامة وجهدها وعذابها غير الكريم، والعزة وذلها المهين، قالبًا الكبير صغيرًا والكريم حقيرًا والعالي واطيًا سافلاً مخيفًا؛ فيسيلون كالماء الوسخ حزنًا، وينقهرون وتأخذهم الصاعقة فيموتون وتسمع من كل حدب وصوب، صوت البوم والغربان وترى أشباهي من الأجساد المريضة، ملقاة في كل مكان وركن، محمية محافظ عليها مطلوبة ومرغوبة ومحببة.

أقول لهم بصوتي الهرم الكسير العنين المرتجف يئن ويدمع:

ما الدنيا إلا وهم وزوال، تحركها الريح من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين ومن أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل، ترجها وتدكها وتعجنها وتهرسها وتطحنها وتخبزها وتقدمها لقمة هشة، لا تسد جوع وحش الفناء اللانهائي، وهي صاغرة مستسلمة تئن، خاوية الخواء التام، حسنها خدّاع ونعيمها زيف وأموالها خراء وإنسانها تائه تافه حقير شريد طريد ضائع، ليست سكنًا وإن آمنت لك، الطامع فيها محروم، والزاهد فيها تملكه وتنفخه وتطيره وتزروه ريحها؛ مهما أوتيت من النعم فأنت فقير، النعمة شر، والفقر غرور، والجمال فتنة، والحرمان كبرياء وصلف، لا تستند على أخٍ فتقويه ويضعفك، لا تكون سندًا لرفيق، فتغويك القوة وترديك، لا تتعلق بفرع ولا تحتمي بجزع، استسلم للقدر الرهيب واقبع في مكانك لا تروم ولا تريم، فالكل باطل وقبض الريح وأنت ظل من وهم، شبح لا بل أقل.

فإذا بهم ينفرطون ويدومون في بعضهم البعض، حسرة وخزيًا وإضياعًا وقهرًا، غير عارفين جهة لهم ولا ملاذ، فيستسلمون

لقولي وينصاعون لأوامري ويتشبثون بي أنا ممرضهم، فيزدادون مرضًا على مرضٍ ووهنًا على وهنٍ وأسودهم وأتسيد عليهم، خائف يقود خائفين، مريض يقود مرضى.

أنا كاهن الخوف الكهين المكين، أصعد كشمس سوداء فوق الكل؛ فماذا تريد ولماذا تأتي بي أيها الغيور الغادر الغائر في الغور ذاته.

ويشهق فجأة كأنه ضرب بالصواعق ويسقط صريعًا منتشيًا من أثر الانخطاف والوجد الذلي الفنائي الحقير، فنحسده على النشوة التي وصل إليها، ونهوى عليه ضربًا وتقطيعًا وقتلاً وحقدًا؛ لكننا نفيق، فهذا ما يريده، هذا ما يرغبه، الذل أكثر والمهانة أكثر ونحن نساعده ونحن لا ينبغي أن نساعده، حتى يتفوق علينا في الذل، لأن كل واحد منا - ونحن لسنا أفرادًا لهم فردية وإنما مجرد أشباه وأشباح في القطيع - يريد الضعف كله له طمعًا فيه؛ فإذا بنا نتركه ونتخلى عنه، فيزحف تحت الأقدام باكيًا صارخًا:

يا إخوتي ذلوني وهينوني لا تبخلوا بخوفكم، فأنا ما جئت طوعًا، وإنما الغيور غرني وغرر بي.

ويتعالى فوق أصواتنا الضعيفة الخائرة، صوت امرأة رثة، ممصوصة الجسد، مشوهة الخلقة، دميمة المنظر، تغطيها البثور ويكسوها الخراء، فائحة بالنتن المقزع، تصوت وتنوح وتشتكي لسيدنا، حبيبها، رجلها الفادي نفسه بالذل في الذل وبالقبح في القبح؛ تقول:

❖ ❖ ❖

كاهنة النسيان

يني يني يني؛ علمني أرشدني قويني، على احتمال القبوع في قعر ذاكرتي؛ وهي بئري سحيقة الأغوار، كلما قربتها خشيت السقوط فيها وياله من سقوط مروع ومريع ييع ييع، إنها تقول لي بلسان القدامى دامى دامى:

الكل إلى نسيان نسيان وكل ما عليها فان فان وما ترينه على سطح البئر، ينتظر دوره في السقوط قوط قوط؛ فإن أردتِ الوجود الحقيقي، انزلي معنا وكوني ذكرى مثلنا.

كنا مثلك لا نلتفت للوراء فصرنا في الوراء وراء، وراء، مهما ابتعدتي فأنت قريبة قريبة ومهما عشتي في الآن، فأنت قديمة قديمة ومهما فارقتينا فنحن معك.

أقف كسيفة ذليلة، الليلة تلو الليلة، لا أرى سوى الماضي وكلما تطلعت إلى المستقبل أراه ماضيًا، كل شيء ماضٍ، كأن الوجود كله ينجرف من فوق جبل عالٍ وينحدر في بئر الذاكرة القديمة السحيقة ويغور ويختفي ويغيب ويهتف بي هاتف كئيب:

ما الحياة ومن أين تأتي طالما كل شيء يمضي ويندسر يندسر.

فأنقهر وتغم عليَّ نفسي وأترك فكري وأقرر النسيان، نسيان بئري كله، الماضي كله، وأكون جديدة دائمًا، تمامًا تمامًا.

بالنسيان عشت يا ناسيني يني يني؛ وفي النسيان أعيش إن كنت أعيش، حياة الظل ووجوده العديم، ونسياني إرادي، به

أحجب نفسي عن نفسي وأضرب حجابًا بيني والآخرين، فإذا بالوجود كله أطياف تطوف بي وأطوف بها، غريبة عني وغريبة عنها، حتى يصل أمري منتهاه، فلا أستطيع التوقف، يأخذني النسيان إلى ضبابه حتى أنسى النسيان ذاته وأخرج إلى الوجود كائنًا جديدًا بلا ذاكرة.

إن النسيان يا منسي قوة القوى، عندما نكون به قادرين على هضم جيد للعالم وتحويله من شيء لا يخصنا إلى شيء يخصنا، معتبرين كل جهود سابقينا مكرسة لنا، استعدادًا لقدومنا، فنعيش حياة أقوى وأجمل من حياتهم، بواسطة الهضم الجيد لما تركوه لنا ولكن معدتي ليست قوية لهضم كل الماضي وتحويلة زادًا لي، أستعين به على فهم الحاضر وتوجيهه لمستقبل أريده، فلا جديد دون قديم ولا نسيان دون ذاكرة.

أنسى يا مليك النسيان والنسْوة، فإذا بذاكرتي كأنها لم تكن أبدًا وأخرج منها دون شيء فارغة تمامًا؛ فإذا بالعالم أمامي لا هو جديد ولا قديم، عالم آخر تمامًا، أنا فيه سائحة أتجول مدهوشة، لا أتذكر أسماء الأشياء وصورها ومعناها؛ وكنت إذا ما نسيت كل شيء حتى نسياني وتذكرت شيئًا كأنه الومض الوامض الخاطف، تأتي مكنسة النسيان وتزيحه من أمامي ويستمر نسياني، آآآآآآآآه ياني ياني ياني.

صار النسيان يعمل فيَّ ذاتيًا، حتى فقدت القدرة على توجيهه وتركت نفسي للناس يوجهونني وفق ما يريدون، مطيعة لهم غير معترضة على شيء أو طالبة لشيء.

ما يعطوه لي أمسكه وغيره أفارقه، جاهلة من يعطيني ولماذا يعطيني هو دون غيره.

ويأخذ بيدي وتوجيهي حتى يرضى عن فعلي، فإذا بي رغم هذا بين الناس الأثيرة والأسيرة، كأنني طفلة الجميع، يطعمونني ويسقونني ويلبسونني ويزينونني ويلقنونني الكلام وأنا في هذا كله أسايرهم وما أن يعلق بذاكرتي غبار صورة، أو ندفة حرف، تمر عليه المكنسة الشقية التي تعمل ذاتيًا فتمحوه فوريًا وأعود فارغة خاوية مستعدة للانقياد والتوجيه؛ فإن ضحكت لا أعرف لماذا ولمن ولا حتى هل أضحك، أم أبكي وبدوت للناس الكريمة طفلة غريرة.

هكذا يا باب النسايا خفت الانزلاق في بئر ذاكرتي وهربت منها إلى غربتي، لا أبني ذاكرة جديدة وإنما لأهدم كل ذكرى وكل قوام معرفي لي بنفسي ومجتمعي والوجود فإذا بي بين يدي الآخرين لعبة يلهون بها؛ أخاف الذكرى يا سيدها، ويرعبني تحول الشيء إلى ذكرى، إن مجرد مرور الزمن كارثة الكوارث، يذكرني بأنني سأكون ذكرى أيضًا، فلا أستطيع التقدم خطوة للأمام وما الأمام! إلا ذكرى قادمة مسرعة لا تلوى على شيء! حتى تنحدر إلى البئر اللعينة!! إنني ضائعة شريدة في ماضٍ دائم، ينحدر ويغور في النسيان، لا أعرف حاضرًا ولا مستقبلاً؛ وشيء يشدني من ظهري ولا يتريث ولو مزقة، ويجذبني لأتقهقر؛ معوَّقة أنا، غير آملة ولا أرى أي شيء قادم، إلا منهارًا صوب وفي البئر المؤسفة؛ إنني فزعة خائفة.

وكان من حظي أن يرعاني طيبًا كريمًا ذا ضمير، يسمي

نفسه أبي؛ هو يدي وقدمي وعيوني، بدوت به كاملة غير ناقصة، طبيعية ومحبوبة ومرغوبة وبدأت أحس بالسرور والحبور، ونشأت لدي رغبة في الاحتفاظ به داخل نفسي وبكل شيء يتعلق بهذا النبيل الكريم الواقف بجواري، صاريًا أستند إليه في العاصفة العاتية الدائمة وراحت تنمو لي ذاكرة جديدة، تقاوم مكنسة النسيان، ذاكرة صلبة كالحجر، ثقبت المكنسة اللعينة وأنسلتها وهرئتها، فلم تعد تمحو ما تزيله وإنما تمر عليه وتمسه فيزداد ألقًا، فإذا بي رويدًا رويدًا أبني عالمًا وأعيشه ومنه وبه تتسع ذاكرتي وقدرة إبصاري، فأرى العالم كله وأتعرف عليه من جديد فأنتشي، أنا الأنثى الطفلة الطازجة وأندفع فرحة بشبابي، تحت المساء، فإذا بالرجال الرجال يرقبونني والشباب الشباب يتبعونني بقلوبهم وحبهم وحماسهم ومنهم من يستحيل أغنية وموالاً لي، حتى يلفت انتباهي هاتفًا يقول:

آآآه آآآه آه ياني

العيون غزلاني

آآآه آآآه آه ياني

الرموش لبلابي

آآآه آآآه آه ياني

بتضلل على بستاني

آآآه آآآه آه ياني

البت مش رحماني

آآآه آآآه آه ياني

جو القلب شكاني
أآآآه آآآه آه ياني
تاني وتاني وتاني
آآآه آآآه آه ياني
لأ ومش عتقاني
آآآه آآآه آه ياني

عرفاني
ياني ياني
وعجناني
ياني ياني
وخبزاني
ياني ياني
وآآآه وآآآه وآه تاني

فإذا الكلمات تطربني وتشجيني وتوقظني وتحييني وتلمني وتفركني وتفردني وتكويني، ييني ييني ييني ومن سرنمتي تصحيني؛ عارفة من أنا وهاتفة:

أنا الحياة وبي تكون الأشياء أشياء والذاكرة ذاكرة والماضي ماضيًا.

أنا الماضي والحاضر والمستقبل معًا، وفي الآن والهنا وأرقص

وأغني وتأخذني البهجة إلى البعيد وأمضي باسـمة الثغر الرقيق، تتبعني الفراشات وتصير خطواتي رقصًا بهيجًا، لطفلة شقية رائعة ورائقة، حتى أعود من رحلتي المسائية وقد زرت صاحباتي، ناشرة بينهم الضحك البهيج والحكايات المرحة، فيمسون بالحياة آملين باسمين، أعود إلى مخدعي ضاحكة مستبشرة وأطياف الماضي الجميلة حولي، تسمعني موسيقاها وأغانيها الخالدة، فأدور حول نفسي ضاحكة مغنية:

أنا هو أنا هو أنا هو

قمر أربعتاشر أهو

سكر قدامك أهو

وجمالي مش على حد

وهاوايا مالهوش حد

وعمره مهيقابل حد

بيحب الحب ده هو

أنا أنا أنا

أنا أهو

وأنزلق رويدًا رويدًا ليس في الهناء والكرامة وحنان الحنية، الحنية وإنما في البئر الغبية الغبية، منسية شاهقة باكية متذكرة عفاريت العيب وحيات الحشـمة وذئاب الكآبة وكلاب البكاء وضباع الذلة وقهر النسوة، فلا أستطيع المقاومة ويغادرني الحب وتغيب عني أغاني الأمل وتستبد بي الكآبة الكئيبة وأترك نفسي نهبًا للذة الضعف الأنثوي النسـواني، يانـي ياني، المهين القديم

فاسـتمرؤه وأرى الخلود فناء والرجال ذئاب والشمس عين باكية وكل شـيء ينطفـئ في عتمة كتيمـة قاهرة ومقهورة وأحسـني غلبانـة تعبانـة حيرانة صدمانـة عدمانة كحيانة مسـكينة ولية مرة مُرَّة ممرمرة ممرمطة ممطتة مبطتة غبية ، مثلي مثل الثكلى والحمقاء والشريدة والطريدة واحدة في الصف الساقط في البئر إلى النسيان ، من النسيان وإلى النسيان نعود ، فأشهق وأغيب عن وعيي داخل بئري منسـية من الكل ومن نفسـي الدنية دنية دنية؛ فخذ بيدي إلى بئر الوحشة الوحيشة ، فلا أعود أبدًا وأصير ذكرى قديمة منسية.

وتنهار مصوتة نائحة:

ييني ييني ييني

وتتمرغ تحت الأقدام فتدوسها ، والألسن تلعنها والأفواه تبصق عليها...

وتقترب مقدمة قطيعنـا من نهاية المزبلة ، إلى بداية المظلمة الظالمـة الحالكـة الظلمة ، تهـب منها ريح البـرد المميت ، فإذا بالأرض تغور تحت الأقدام ، تنهدم كأنها سقف مهترئ وتتكفئ الأجساد على الأجساد ، منهارة مع الهدد ويواصل الآخرون السقوط جماعـات ، تباعًا غير مهتمين بمن مات ومن عاش؛ فنحن أشـباح متشابهة ، كلنا زي بعض ، كلنا واحد ، مجرد نسخ من بعضنا ، لا فـرق فـي أن يحـل واحد مـكان الآخر ، من مـات ومن عاش ، المهـم لدينا المجموع الذي هو في تزايد دائم ، كأكوام الزبالة في مستودع الأرض.

يـدوس أنـاس القطيع على بعضهم ويواصلون بلا أحسـاس أو شعور بشيء، المهم أن يستمروا ويقوم الآخرون من العجن والهرس ويواصلون الزحف، فهم اعتادوا الهرس والزحف، في المواصلات العامة العفنة الضيقة والجمعيات الاستهلاكية والمصانع القبوية وعشـش الصفيـح والأسـواق الشـعبية والمسـاكن الغبية وكل الخراب، دون اعتراض...

حتى ندخل أرض الشتاء المثلجة الثلجية، نتطوح، يدفع بعضنا بعضًا نبكي وننوح ونتضرع طالبين القوة من أبي الذل المذلول، الملول الممل الأمل الملل ذاته.

❖ ❖ ❖

برد الخراب المطلق

ضحكة السقيع، بررر، هرررر، وصرير ريحها الشيطاني، ضحكة سامة سمجة السماجة نفسها، رخمة الرخامة عينها، لا مبالية، ممزقة ألف مليون مزقة، من زجاج ثلجي، يخترمنا اخترامًا، تكشط الآذان من جانبي الوجه، والأنف أسفل العينين، والعينين تعميان، تزيغان تتجمدان، وتتجمد الأطراف وتشق الصدور المصدورة المريضة أصلاً وفرعًا، فنعطس بشدة ونكح دمًا، بررر، هررر، فنلتم في بعضنا كالجيش في المعركة، يواجه عدوًا عتيدًا، نتداخل في بعضنا، نحتمي ببعضنا، نغوص في بعضنا، يتحرش الرجال بالنساء والرجال بالرجال والغلمان والأطفال، فلا عيب لدينا ولا خصوصية نعرفها للواحد؛ لا استقلال ولا كرامة ولا نزاهة، المهم أن نبقى على قيد الحياة، نكون وبس، نعيش وخلاص، بأي طريقة، اللي يشلنا يشلنا واللي يحطنا يحطنا وأحنا مالناش دعوة، مالناش فيه، في أي مكان نكون فيه، كل شيء صالح ويصلح لنا، فلا رأي ولا اختيار ولا حرية ولا تحمل مسؤولية، أحنا مالنا ومال الحاجات دي، الحاجات دي للناس التانية الحقيقية، أما نحن فلا لا لا، موجودون ومش موجودين، عادي وسلامات يا أم أحمد وتعيشي يا أم اللللي ويا أم ترتر وزغرطي يا انشراح، اللي راح راح وكلب حي ولا أسد ميت واربط الحمار مطرح ما يقول صاحبه، والدنيا منفاته، مالهاش لازمه، خرية.

نغوص في بعض، أنفاسنا تصير نفسًا واحدًا ، أجسادنا جسدًا واحـدًا ، كتلة من الخراء والزفت والعفن والزبالة ، تكسـوها نـدف الثلج واللواحـة الصماء البكماء المتجلـدة المريعة ، مَن فـي الأطراف ولو لم يكونوا عرايا يموتون فورًا متجمدين، في صورة تماثيل مرعبة للوهن والخور ، أما العرايا فيتحطمون وقد تحولت كل قطعة منهم إلى شـظية ثلج مسننة محمرة ومزرقة؛ ومن في داخل الحشـد القطيعي مستسـلم لمـن وراءه ، يخترقه اختراقًا ومن بجانبه يمسـك به إمسـاكًا ومن أمامه يسد عليه الهـواء فيختنق ، والبـرد طائر يحلق صارخًا فوقه ، ينتظره حتى يرفع رأسـه ويتنفس شـيئًا من هواء الحيـاة ، فيطمر فمه بالثلج ويخنقة ويموت أو يكاد.

صـار القطيع كتلة من الثلـج ، تتحرك ببطء بطيء ، خرصاء بكماء ولولا هطول المطر الشـنيع الوسـخ الأسود ، تصبه علينا الريـح صبًا صبًا ، ما تحركنا في طريقنا قيد أنملة وقد أصابتنا كل الأمـراض الوبائيـة السـحيقة والسـاحقة وبتنا نتحـرك معًا حركـة لا إراديـة ، تحت الريـح الصرصر العاتيـة والمطر زخات هطالـة ، كأنما العفاريت تفرغ بحور العالـم فوقنا وتقذفه علينا دفعـة واحـدة لا نهائيـة ، ونحن خرص عمي بكـم ، جثثًا تتحرك فـي المجهـول المظلم؛ وتزعق فوقنـا وحولنا طيـور غريبة معتمة صارخة وناعقة في ليل كهفنا المحيط بنا ، يحشرنا بين فكيه وأنيابه ويهرسنا بأقدامة الضخمة الثقيلة ، وصوت البوم والغربان يصـم الأذان؛ وتقابلنا أشـجار جـرداء حزينة مرعبـة ، علقت بها جثث ورؤوس هياكل عظمية ، أكلها البرد وغطاها الثلج ، يقطر

منها ماء المطر ويسـقط متجمدًا تحتهـا ، حتى كوَّن كومة من ثلج، راحت تصعد إليها وفوقها وتأكلها أكلاً وتغطيها وتكبر بها وتدور حولها وتصعد إلى فروعها ، ناشـرة سيوفها وخناجرها الثلجية ، كأنها ورود الشـر في حديقة الشـتاء القاسـية المعتمة الممتدة بلا نهاية ، في أرض البرد المطلق.

فيما قطيعنا ينزلق ببطء فوق الأرض الصخرية الثلجية ، تأكل أقدامنا فنقفز ونوحوح هررررر ، بررر ونبكي وننفرط ونلتم ونصرخ علـى سـيدنا وراعينا وأبينـا أبو الذل المذلول، راعـي الذل الأول فـي العالم، المهان الإهانة الكبـرى، الخائف الخوف الأعظم، المختبـئ بالحفـرة الأخيرة في قبـو المعبد القديم قـدم الدهر، هررررر، بررررر.

ونتسـاقط ويدوس بعضنـا بعضًـا ونتحـرش ببعضنا ونركب بعضنـا ، ونتضـارب ويبعـد بعضنا بعضًـا ، حتى ينفـرط جمعنا ، فنتناثـر فـي الريح المثلجة؛ فالاحتماء ببعضنـا قوة وتواد وتقوية لأفرادنا وشعور بالوجود معًا والتعاون في الشدائد والملمات، وهذا كله قوة وليس ضعفًا ونحن ما جئنا إلا طلبًا للضعف والمزيد منه وليس طلبًا للقوة ، حتى ولو كانت القوة على تحمل الضعف، فنحن نريد الضعف الخالص المهين النقي، الصافي والذل التام؛ لذا ننفر من مسـاعدتنا لبعضنا ، وعراكنا لرغبتنا في البعد والتفرق عن بعضنـا والخـوض وحيدين فـي الضعف، ومن ثم ننعـم به وبالذلة أكثـر ، لذلك نحاول نسـيان بعضنا تمامًـا وغياب كل واحد مع نفسه في نفسه وتضاربنا وتناحرنا عرضًا وتخليطًا وفوضى ينتجها تجمعنا لا أكثر.

وتتعالى الشكوى من كل واحد ليعرضها على زعيمنا ، عله يسـمعنا في بعده السـحيق، فيرسل للشـاكي نصيحة، تفتح له طريقًا غير معروف ولا مطروق، للمزيد من الضعف.

يقول واحدنا باكيًا لاطمًا وجهه، فتتناثر دموع عينه وتسـودّ وجنتاه وتتطاير من على رأسه أكداس الثلج:

❖ ❖ ❖

كاهن الصمت

سيدي يا أبا الصمت، يا من نستمد منك الكلمات الضعيفة الخائـرة الصامتة، أنـا كاتب محب للكلمـة الجديدة، دفعتني نفسـي غير الصموتة كفايـة، غير الضعيفة كفايـة، للكتابة سـرًا، فعرفـت الفرح السـري المحظـور علينا نحـن المغمومين دائمًا وأبدًا، عرفت بالكتابة إظهار نفسي أمام نفسي، فعريتني وعرفتنـي، ليـس ضعيفًا وإنما قويًـا وفرحًا ومسـرورًا وحرًا؛ لذا خفت من كتابي ومنعت نفسـي عنه أيامًا وشهورًا وسنين محاولاً نسيانه، لكني كنت أجد نفسي واقفًا أمام الخزانة التي تحفظه بأحد أدراجها السرية وتتحرك يدي رغمًا عني وتفتح الدرج وتغوص فيه وتخرجه من مخبأه العطن الصامت وأظل أتأمله بصمت طويل شاعرًا بالذنب والشوق واللهفة وألمس أوراقه العزيزة وأنكب على قراءة كلماته مسـحورًا وأذوب فيها، فأنسـى ما أنا عليه من ذل وضعف؛ هممت كثيرًا تمزيقه أو إلقاءه في النار، لكني كنت أجدني أضع يدي بدلاً منه في الجمر، باكيًا حالي، ولم أرَ بدًا من اطـلاع أحد عليه، عله يفتيني بما يجب عليّ فعله وكنت مترددًا مجنونًا خائفًا بل فزعًا، كأنما كل شـيء وضع أمامه في كفة وهو في الأخرى، فإذا به يثقل الكفة الخيالية أمام عيني، فأخور وأنكر على نفسي هذا النجاح الوحيد، الذي لم أقوَ على التخلص منـه، والصوت الوحيد الباقي لي مني؛ فحملته كما يحمل الأب ابنـه الوحيد الغالـي برفق وقد لففته بالخرق، خشـية رؤيته معي

وذهبت به إلى جماعة الضعفاء الخائفين من كل شـيء وعرضته عليهم، لأعرف رأيهم: هل يصلح للنشر على العامة أم لا، أو حتى أبقيه لنفسي أستمتع به، وكلما تهت عن نفسي أجدها فيه؛ وأنا أرتجف إشـفاقًا من حكمهم الذي كنت أتوقعه سـلفًا ولم يخب ظني فيهم طبعًا.

فزعوا في البداية قبل تناوله مني، فزعوا من جرأتي على تناول القلـم ومن اسـتجابتي للرغبتي في التكلـم والتعبير والفضفضة وإخـراج مـا بنفســي أراه ويراني، أفارقه تارة وأعـود إليه أخرى، وقالوا:

إن هذا الفعل دليل قوة وقدرة، لأن إمســاك القلم في حد ذاته فعل ونحن ضد الفعل، ضد أن يكون لنا إرادة، فنحن لا نمسـك بالقلم، إلا بأمر من السادة ولا نكتب إلا ما يملونه علينا ولا نحيد عن ذلك، نحن مدونين فحسـب، ناقلي أفكار وليس منشـئيها، نحن أدوات في يد الغير ولسنا فاعلين في الغير أو معهم، أو حتى في أو مع أنفسنا، إن فعلنا لا فعل، لا نبادر إلى فعل ولا نهيئ أنفسنا لقدوم فعل، نطيع ننساق ونساق، ليس بإرادتنا ولا مرغمين، شأننا شأن الأشياء بالضبط، تمكث في مكانها حتى تمتد إليها اليد، ولا نشعر ولا نحس إلا كما تشعر وتحس المادة الغفل، نتمدد أو ننكمـش، لا ننمو ونكبر ونعيش ونمـوت وإنما نوجد ونتضخم ونتحطم، نحن لسنا سـوى التبدي المحسوس للعدم؛ وهذا بعض منـا وليس كل شـيء، فنحن بحر الظلمة الأبدي وإبداع السـواد والحلكة الحالكة ولا فخر طبعًا.

فأخـذت ألـح وأبكـي، طالبًـا التحقق مما كتبتـه، أريدهم أن يرشـدوني: هل ما فعلته ضعفًا أم لا: ألا يكفيكم دليلاً على ضعفـي، شـكي في نفسـي ورفضي المبـادرة والمغامرة ونشـر كتابي بنفسي، دون رأيكم وها أنا مستعد ومستجيب لرأيكم مهما كان.

فاستجابوا لي، ليس لأنهم اقتنعوا بكلماتي وإنما لأنهم شعروا بقهري لهم وأنني بذلك زدتهم ضعفًا وقراءتهم كتابي سـتزيدهم ضعفًا وذلة، فخضعوا ينهلون من فيض المذلة التي أشـعرتهم بها ولمـا قرأوا شـيئًا يسـيرًا متفرقًا مـن كل صفحـة وفصل - فهم جهـلاء مثلـي طبعًا، لا يعرفون القـراءة ولا الكتابة، إلا ما يملى عليهم ويرسـمونه خطًا، دون فهم، وعيونهم العمشاء تتخبط فوق السطور، لا ترى منها حرفًا وعقولهم الجاهلة لا تفهم منها كلمة - فزعوا ورفضوا نشـر الكتاب وكـان ردهم:

إنهم صحيح لمسوا ضعفًا في كلماتي، فهي خائرة، عنينة، تنقل المعروف نقل المرآة وتصيب قارئها بالملل والإحباط وتدفعه لكراهيـة القراءة والكتابة والحيـاة وحب الجهل والغباء وتترك عقله نهبًا للتشـوش والخوف من القـدر والعفاريت والفقر والغنى وكل شـيء، وأنني نجحت فعلاً في هذا وما اعتراضهم إلا على نجاحـي هذا بالذات، فنجاحي قوة في حـد ذاته وقالوا مفصلين رأيهم:

مـا كتبته هـراءً مريضًا لا شـك فيـه وإذا أظهرته، سـتدفع القراء لكراهيته دون شك، لكن كراهيتهم تنوير لهم ومن ثم

ستدفعهم للبعد عنه، كما يبعد السليم عن الأجرب وهذا معناه، إن كتابتك من حيث لا تدري تنورية، تنبه الغير للكتابة الرديئة وتنفرهـم منها ومن هنا فكتابك مرفوض، اذهب وأعد الكتابة مجددًا، اجعل كلماتك صامتة، لا تقل شيئًا أبدًا، اجعلها تكرارًا محايـدًا فاترًا، تمر عليهـا العيون فتنام، كأنما مسـها الخدر، دون أن تحـس، ولا يتذكرها العقل بعد ذلك، فقط يحس باللوم والتأنيب والخوف والضياع والإضياع، دون أن يدري لذلك سببًا.

فقررت يا سيدي أن أكتب بالحبر السري، كلمات لا يراها أحد أبدًا، ثم منعت نفسـي خوفًا من أن تكتشـف حيلتي وتصل رسـالتي للأذكيـاء، وجمعت كتابًا صفحاتـه بيضاء كلها، لا شـية فيها، ملسـاء، بكماء، صماء، ليس على الكتاب سـوى اسمي وأسرعت إليهم آملاً موافقتهم، فأنا أريد أن أكون كاتبًا والسلام، كاتبًا وخلاص، أي حاجة؛ لكنهم لما تناولوا كتابي الصامت فزعوا وقالوا:

إن هذا يعبِّر عن الخبث والمكر وأنك بهذا الكتاب تدين كل الكتابات الفارغة التافهة المملـة الصامتة والمكتظة بالصراخ والضجيج المصدع للرؤوس؛ أنت بهذه الصفحات الفارغة، تدين صمت الكلمة وأن كتابك رسالة اعتراض قوية واسمك عليه دليل بطولة ومتى كانت أسماؤنا دليلاً على بطولة، واقفة بذاتها، تدل وتشير وتعني وتنبه وترغِّب في شيء ما؛ فإن تعتبر اسمك هو كل الكتـاب، تزيد مـن أناك وتكثرها وتجعلهـا تهيمن على الفراغ كله، تحتله، فلا يرى القارئ إلا اسـمك شـامخًا وسط الضباب

الأبيض للصفحات الخسيفة الخاسفة وراء اسمك؛ وأنك بذلك أيضًا تقول: إن غاية الكتاب هو تخليد لاسم الكاتب، ومن ثم تعظيم الاسم في حد ذاته، كإشارة ودلالة ورغبة ودعوة لأن يظهر كل واحدٍ اسمه وشخصيته الفريدة في كتابه، فتنتشر الفردية والفرادة ويصير المجتمع بأفراده المحددين بالاسم والمميزين بالشخصية، وليس المندغمين في الحشد، لا تميز أو تمييز؛ وهذا كله هو القوة عينها، لذا نحن نرفض هذا الكتاب.

فمزقت اسمي من عليه يا سيدي المهان وشعرت ببالغ الضعف والخور والمسكنة وقدمته لهم كتابًا فارغًا صامتًا بلا مضمون ولا شكل ولا عنوان ولا اسم، مجرد صفحات فارغة تمامًا، بيضاء خالصة كالوهن وضباب الشتاء، ففزعوا أيضًا وقالوا:

إن هذه المصيبة الكبرى، أنت بذلك تعلن أهمية وجود الكتاب العام الشامل، بلا صاحب، والذي يقوم بكتابته الجميع ويشاركون فيه جميعًا دون فردية فريدة ساذجة، وإننا كلنا واحد والكل في الواحد، مثلما أن الواحد في الكل وبهذا تدعو البشر للإخاء والمشاركة في ذات العمل والتعاون ونبذ الفردية الأنانية المقيتة وهذا هو القوة ذاتها، لذلك نحن نرفض الكتاب.

فسقط في يدي يا سيدي، فأنا بلا رأي وأستمد منهم الرأي وأنا موافق عليه، قبل أن يقولوه وأعرف أن رأيهم هو الرأي ذاته، لا رأي قبله ولا بعده، فقررت أن أجعل كتابي في قلبي، بين جوانحي، ألقي كلماته شفاهة على الناس وأعلمتهم بذلك.

فرفضوا فورًا وقالوا: إن هذا له تأثير مماثل للكتاب المطبوع

والمنشـور على الناس، بل هو أكثر منـه تأثيرًا ذلك أن كلماته ستكون كلمات حية، تخرج من القلب مباشرة، لتصيب القلب فورًا وتجمع الناس حولك يسـمعونك وهذا تعويد لهم على التجمع والتضامن والتشارك وحب الموهبة الفردية، فتنتشر بينهم القدرة علـى الكلام المنظـم المرتب الحي الحميمـي، فيتمايلون طربًا وتتفتح ملكاتهم، فيقلدونك وتنتشر طريقتك فيهم وبهم وتتطور، فيصير الكل شـاعرًا، يجمع الناس حوله ويحدثهم عن خواطره وأحلامه فيعيشـون الحياة الداخلية الحميمية بأنفسهم مباشرة، هنا والآن، فيزدادون تعرفًا على أعماق بعضهم ومن ثم على عمقهم وتنتشر المصارحة والمكاشفة وحب القول.

والقول فعل، لأنه يحدث في زمن ويعودهم البناء والتشييد، لأن كلماتك لا تخرج دفعة واحدة، كأنها كن فيكون السحرية، التي تأتي في لحظة بما تريد، دون جهد وبناء وتعاون من الكل على ابتـكار حياتهم بالجهد والعرق والتفكير؛ وإنما كلماتك تأتي كلمة فكلمة، كما يتراص الحجر بجوار الحجر، حتى تكوّن سـطرًا، كمـا تكوّن الحجارة سـورًا وجدارًا والسـطور تكوّن قطعة مفهومة ومحسوسة، كما تكوّن الجدران الحجرة والقطع تكـوّن فصـلًا والفصول تبنـي كتابًا، كما تكـوّن الحجرات البيت، يسـكنه الناس ويدخل السـامع عالمـك المنظم، فيتعلم النظـام والترتيب والبناء وهكذا يتعلـم منك القدرة على مواجهة الناس والشـجاعة في القول؛ وهذا كله قوة وليس ضعفًا؛ لذا ما تقوله مرفوض.

طويت كتابي بين جوانحي يا سيدي، أحدث به نفسي وحدي، منتشيًا وحدي ذاهبًا معه في أطوار الخيال، يشع في نفسي وأسمع رنينه في أذني، موسيقا حبيبة حية، تقودني كما تشاء، فأرقص طربًا على إيقاعاتها الداخلية، فأبدو كالمجنون الأخرص، يذوم بالحروف المكسـرة ويتطوح في الطرقات، عنينًا، لكن فرحًا فرحًا خاصًا، لا يشاركني به أحد حولي، لكنه يحس به معي، رغـم عدم فهمـه، فالمجنون الطيب المسـالم المحلق في نفسـه يطاردها وتطارده، أفضل عند الناس من المجنون الشرير القاسي المتخبط في زحامهم، كأنه الجندي في سـاحة الوغى، يؤذيهم دون ذنب ويزعجهم دون سبب وينكد عليهم، كأنه المرض يسعى في بدنهم السليم؛ وظننت نفسي بنفسي هاربًا ناجيًا كالطفل يلهو مع خيالاته، لا يزعج أحدًا ولا يراه أحد وإن رآه لا يهتم.

لكنهم تبعوني وتجسسوا عليَّ وراقبوني، كأشباح الكابوس، تحيط بك، حتى تشلك وتقبض على حلقك في نومك، مانعة عليك الهواء، فلا أنت حي ولا ميت وعرفوا حيلتي، استخرجوها مني، اسـتخراج الطبيب للجنين من بطن أمه، وأحاطوني بكناسـتهم وزبالتهـم وحاصرونـي بمنطقهم الخائـف والمخيف وتكأكأوا عليَّ والتموا وهمسوا محذرين:

اسـمعنا جيـدًا يـا هذا لآخـر مـرة: الحريـة الداخليـة توطئة للخارجية، فالحر هو من يحرر نفسه أولاً، مَن يكنس بيته، مِن فضلاته ويهيئه للعيش الصحي؛ مَن لا يؤثر فيه الخارج، إلا كما يريد هو، فيصير داخله منيعًا وممنوعًا على الخارج، يعيش جنته

أو جحيمه وحده، لا يشـاركه شـيء أو أحد؛ وشـاء أو أبى، يشع مـا بداخلـه خارجه، فإذا بخارجه بعض مـن داخله، فينغرس في الوجـود أكثـر ويصير أكثر حقيقية مـن الحقيقيين؛ عليك إذن بالصمت التام، خارج نفسـك وداخلهـا، لا تتكلم إلا إذا قيل لك وتعرف المطلوب منك لتقوله، قبل أن تقوله وتصير مرددًا لكلمات الآخرين، شاعرًا ومتأكدًا أنها ليست كلماتك أنت وإنما كلمات غيرك وما عليك إلا الترديد والحفظ فحسب؛ عش بالصمت وفيه، كنه، صمتًا دائمًا، لا تتكلم، لا تجيب، إلا إذا سُئلت وإجابتك لا تأتي بها من نفسـك، مشوبة برأي كونته بفكرك، فأنت بلا فكر ذاتي خاص وإنما الإجابة الموجودة سلفًا والمتفق عليها من الجميـع، فأنت خزانة معلومـات، كمبيوتر، ما أن تلمس أزراره حتى تنطبع حروفها على شاشته، بلا زيادة أو نقص.

فأسـقط في يدي تمامًا، وانسـكبت نفسـي في كل اتجاه وتبخـر ماؤهـا وجفت وهربـت روحي مني، فصـرت على عظمي ولحمـي فقيرًا، مجـرد كائن موجود، لا هـو بالحي، أو الميت؛ لكـن كـان كتابـي بداخلـي يزعـق فـيَّ، وتتعالـى الكلمـات والأصوات داخل غرفة صمتي، كأنهم المحكوم عليهم بالإعدام ظلمًـا وملقون في قفص من حديد، تحت الأرض، لا يسـمعهم أو يشـعر بهم أحـد، فيدقون أعمـدة القفص الصلبـة، بوهن ويأس باكين شاكين مظلومين مطحونين خائرين ضارعين لسجانهم، الناظـر إليهم من البعيد المعتم ذاهـلاً، لا يعرف كيف يفعل ولا تواتيه الجرأة على التقدم بسلسلة المفاتيح، ليفتح القفص ويطلقهم

ويحررهم؛ فأخبرتهم بذلك منهارًا خائفًا فقالوا:

لا بد أن تتطهر عند سيدنا، هو من سيشفيك.

ولما شدو الرحل مضيت معهم، آملاً أن يهدأ ما بداخلي، من حب للتكلم بصوتي وكتابته وأوجد في عمقي العميق.

سيدي أنا لست ضعيفًا كفاية، لست بذات الخور المطلوب من طالب الضعف، فعلمني كيف أهبط مثلك إلى أعماق الصمت، حتى لا يمكنني سماع رنينه في قلبي؛ الصمت الأصلي للوجود المرعب، صمت المجرات والأبعاد السحيقة الغربة، الغريبة الموحشة، صمت الفناء الحي؛ وجهني وجهة الهروب من نفسي وأحلامي، اجعلني لا شيء، وجود اللا شيء، وهمًا، طيفًا معتمًا، يمر في الظلمة الحالكة؛ أرجوك، استمع إلي يا أبي، يا مثال الصمت الكامل الشامل النهائي المطلق.

ويصمت منهنهًا ويمشي في ركبنا الحزين المريض والخدم يواصلون دق دفوفهم ودق رؤوسنا وسبنا:

من الأوساخ في هذا العالم؟

نحن ومن غيرنا.

من الحقراء الأوغاد المهانين الأذلاء الكلاب أولاد الكلاب؟

نحن ومن غيرنا.

لا أهلاً بكم، في بيتكم بيت الغربة والذل والضعة والهوان وقلة القيمة والخراب.

ويضربوننا بأسياخ الحديد والعصي ويلقون علينا حفنات الثلج،

من فوق كتلتنا الملتحمة التحام اللحم بالعظم؛ والطيور الجارحة البغيضة الشـريرة تنقـض علينا بمخالبها العظيمـة وتأخذ منا ما تريد، لكنها سـرعان ما تلقي به إلينا صارخة ناعقة قرفانة منه ومن رائحته ومن طعم جلدة الخبيث المسمم، وتهوي ميتة، مندكة اندكاكًا في أكوام الثلج، الذي يتناثر في زوبعة وتحمله الريح خيمة هائلة، تلقيها علينا، كأنها الرمال تعصفنا عصفًا وتطمرنا طمرًا، فيما نواصل المضي، صارخين باكين لسـيدنا ومولانا، صاحب المذلة المذلول الذليل الأذل، ليمدنا بالضعف الأضعف.

وتقـول فتـاة طويلـة بإفـراط - في ريعـان صباهـا، يبدو من ملابسـها الثقيلة الغنى والوفرة والنعمة والحظ واليسـر، يحميها غطاء محافتها الفاخرة، رغم ما أصابه والمحافة، من وسخ وبؤس وهـي تضجـع فيها، تحملهـا أذرع وأكتاف رجال عماليق شـداد غلاظ - بلسان الدغ تقيل بطيء متريث رقيق رائق مثير رغم حزنه:

❖ ❖ ❖

كاهنة القبح

أوووووف... يا عمو .. أوووووف

ما كرهت يومًا سوى الجمال وما أبغضت نعمة، إلا الحسن والدلال، فكان عليَّ كراهية نفسي، لأنني أنا الجمال الخالص لا شية فيه والرقة التامة والغنى الوافر، كل شيء ملقى تحت قدمي وأنا محرومة منه وزاهدة فيه ومتأففة ومتكبرة وبخيلة وضنينة وفقيرة الروح، حتى الجفاف والقحط، أشرب ولا أرتوي آكل ولا أشبع..

وملاك الحب جواري ذليلاً ساقطًا من سمائه، يزحف ورائي ويدور حولي وأنا أدوسه مشمئزة منه، هو أجمل الكائنات جميعًا، أروع وجه وأرشق جسد وأحن قلب، يبتسم لي مهما قطبت في وجهه وكشرت وتأففت وتفلت؛ هو كيوبيد، ملاك سماوي رقيق يا عمو الضعيف الهزيل، رجاني مناداته: كيو فقط، حتى يخفف عليَّ نطق اسمه، فلساني ثقيل قليلاً وبه لدغة خفيفة، تثير جنون الرجال والنساء والأطفال وأعلمني أنه ترك البشر جميعًا بقلوب فارغة، يلحفون في النداء عليه وهفا إليَّ، فوجهي يكسف الشمس ويخجل القمر وتذوب الزهور في ماء وجنتي وتشع بألق إلهي، فأنا إلهة من إلهات الجمال، عشت دومًا في الوفرة والنعيم، لا أمشي إلا ويسندونني، حتى أنتبه لما تحت خطوي، لطولي الفارع، لا أنظر حتى يرفعوا لي أهدابي أو يقصوها لطولها المفرط؛ أنا الغادة الحقة، جسمي يشتهيه الجميع، ويتدلهون فيه

ويكتبـون فـي هيامه القصائـد والروايات؛ وكيـو كلما رماني بسـهامه، تنحـرف عني وتعود إليه وترشـقه بنار اللوعة والشـوق الجميل الرقيق لوصال الحبيب؛ فيظل ناظرًا ليَّ ويطوف بي ويلعب حولي فلا أحد يمكنه رؤيته سواي.

مسكين كيو هذا يا عمو الضعيف اوووف.. لكنني لم أشعر تجاهه بشيء، فهو إن كان رقيقًا فإنا مللت الرقة، كريمًا سخيًا، فأنا زهقت من سخائي وإلقاء فضلات طعامي للناس وهي فاخرة مدخنة معمولة في الأوتيلات الفخمة، تأتيني جاهزة طازجة، أولاً بـأول، وعطري يضوع فـي المكان، قبل قدومي وحال حضوري وبعد أن أخلفه ورائي؛ الرقة والجمال والنعومة، تلك الأشياء التي يكافح البشـر جميعًا، خاصة نسـاءهم، للوصـول إليها، أو إلى شيء منها، ملقاة على أرض غرفة نومي الواسعة الفارهة، أدوسها في طريقي إلى الحمام؛ أنا المثقلة بالنعيم إلى حد ممل وسخيف، بت أكره كل ما يحيط بي، آآآ ووففف.

نعم ثقبت حشرة الكراهية قلبي بذنبها السام ونسج عنكبوتها بيته على نعيمي، فصرت نافرة ونفور، خاصة من خطَّابي وكانوا من الكثرة الكاثرة، طولاً وعرضًا ووسـامة وهيبة وتأنقًا ورقيًا وتحضرًا وتسـاميًا.. مثقفون وشعراء ووجهاء المجتمع كله، أتوا هؤلاء الجوعي المحرومين، للمسي وتحسسي، بعيونهم وأيديهم وشـفاههم، وشـمي بأنوفهـم وتذوقـي بألسـنتهم، والاسـتيلاء علـى جمالي بقوتهـم ومراكزهم الاجتماعيـة والقدرية والحظية والصدفوية والخداعية، النصبية الفهلوية، يسـتهلكونه كيفما

شاءوا ويخفونه عن العيون إلا عيونهم؛ كنت أدوسهم في طريقي وهم منبطحون على وجوههم ذلاً ، يطلبون رضابي ورضائي؛ كان مـن يطلبني منهم أمنعه، يصلني أقطعه، يتدله ويتلوى في حبي، أكرهـه؛ وأريد مـن يهينني، ويذلنـي ويأكلني لحمًـا ويرميني عظمًا.

لكنني لما نظرت، ما وجدت إلا قلوبًا تتلظى في نار شوقي، وعقولاً تسـبح في حلمي وكلٌّ طامع في لمسـة أو نظرة أو شـبه ابتسامة مني؛ فأضربت عنهم جميعًا وأمرت خدمي بإغلاق أبوابي دونهـم، فانتظـروا على الأبـواب، باكين ضارعيـن؛ وليس هذا فحسـب، صرت أحقد علـى الخادمة الصغيرة، ابنة البسـتاني، الدميمة الوجه، الغبية.

رأيتها مرة من فراندة غرفتي العالية المحاطة بالزجاج السميك والمحتشـدة بالطيور والزهور، تلامسـها ذؤابات أغصن أشـجار الحديقـة المتراميـة، كانت تقبـض على الزبال الشـاب، حامل كيس الزبالة الضخم، كأنه الورم على ظهره، يكاد يسـحقه وهو تحته كالنملة؛ وتشـده من قفاه وتسـحبه من تحت الكيس وترميـه تحت شـجرة وتطئـه وهو مقطـوع النفس، يلقـف الهواء الضنين تحتها، ويتفلت منه صوت نباح كلب، في عراك شـرس مع قطة قوية شرسـة، تهبشـه وتمزق لحمه، طالبًا النجدة، التي جاءتـه من أبيها البسـتاني الفـلاح العجوز، يجري قفـزًا، بقدمه العرجاء وجسـده القصير القزم، ينقذف من بين أسـنانه السباب وفـي يده الصخرية عصًـا وراح يضربها بعنف وهي نصف عارية،

جلبابها مربوط فوق بطنها وما تحته حرًا وكانت تتوجع بلذة فوق الزبال المرعوب.

هنا اكتشفت أن في الألم لذة ورغبت في أن يضربني البستاني الفلاح القاسـي، مهما كانت المشاكل التي يمكن أن يسببها هـذا له ولي وكنت أعرف أن الهواء الذي يدخل غرفتي لا يدخل حتى يسـتأذن من أبي، رجـل الحكومة الفاحش الثراء ويفحصه الأطبـاء المتخصصـون حتى يرونـه نظيفًا ورائقًـا وصحيًا، حتى يسـمح له بدخـول مخدعي ويلمـس وجنتي ويقبلنـي ويدخل فمي ويملأ كياني سعيدًا منتشيًا فكيف سيدخل العجوز ليضربني ويمتعني!!

ولقد أحببت هذا العجوز الأشـبه إن لم يطابق القرد شـكلاً ومضمونًا، بل يفوق القرد المسكين قبحًا، فهو من أحقر وأوسخ البشر، إن لم يكن هو القبح يسير على قدمين، يسكن بجواري وأنـا محرومـة من قربـه الخطر وحضنـه العفن ولمسـه المقزز، فقررت المبادرة وأعددت للمقابلة؛ مقابلة القرد «حبيبي».

اسـتعنت فـي ذلك بكيـو، كان يجلس في ركـن غرفتي، يلعب بعرائسـي ويركب مراجيحي ويطلـق بالوناتي ويعزف على البيانو خاصتي ويسـكب عطوري، على جسـده العـاري الرقيق ويغني أغانيَّ الجميلة ويقرأ كتبي ويطَّلع على ألبومات ذكرياتي، مجنونًا بي؛ يريد ألا يفوته شـيء عني، حتى ملابسـي، خصوصًا قطعهـا الصغيرة المثيـرة، يحضنها ويدمع، فـي ركنه الخجول الحزيـن، يتمزق لوعة وينظر لي منتظرًا، أن أشـير إليه بأصبعي

الليـن الشـفاف الشـهي، ليهـرع إليَّ برقـة ويطوف حولـي بهالته النورانية ويحدثني بمرح عن الجنة وسحبها الوردية الرقيقة وزهور الحدائق وأصدقائه الفراشـات الملونـة، يطوفون معه كل فجر وقبل الشـروق، تحت السماء، مغنين للصباح الجديد ويستقبلون أول شـعاعات الشـمس، دامعي العيون، فرحيـن بالوجود القوي اللطيف الثري الكريم، يهبط على الأرض الخضراء كل يوم.

انسـللت نصف عارية، من تحت فراشـي، تاركة وسـائدي المنفوشة: الساتان والحرير الحمراء والبمبي والصفراء والزرقاء، كأنـي أضجـع بين قـوس قزح، غادرت سـريري العالي الواسـع الفاخر وخطوت إليه؛ كان الفجر على وشك الحضور وفراشات الحديقـة تتجمع وتتهيأ للعب النوراني السـماوي ومائة ألف مليون عصفورة رقيقة تستعد للتغريد، مطلقة نشيد الحب، جيوشًا تخرج معه، يلهون تحت السماء الحليبية فوق حديقتي المترامية الزاهية.

جلست بجواره، فاحمر حتى كاد أن يشتعل بنار الوجد والشبق ونـام على فخذي العاري إرهاقًا من نعيمـي الفاره، خائر القوى، دامعًا وراح ينظر لوجهي وهو الحسن الصافي: وجه طفولي، رقيق مشـاكس مكار غناج ومغناج وردي تطل منه عيون ما خلق اللّٰه لها شـبيهًا، جوهرتين من جواهر صندوق الجنة الخاص، تحيط بهمـا وجنتـان، هما فجر صغيـر، يطل على عالم آخـر وأنف هو الرقة، ما بعد تصفيتها وتنقيتها مما يشـوبها، وفم هو روح الروح والرقة الأساس، أما الرقبة، فتلك لا يمكـن وصفها، فهي العمود حامـل كأس الوجود كلـه، بخيره العميم، مـن الألماس، روح

الألماس الوردي، عروقها الزرقاء الخفيفة تلوح كأن الرقبة شلال ماء كوني متماسـك، أما الثديان، فكيف يمكن وصف مثال الخير والنعمة الأفلاطوني، إنهما خلاصة الأنوثة وما بعد خلاصة الخلاصة ولن أحدثك يا ضعيفي عن خصري بالغ الدقة والنحافة وعـن بطني ودائرة سـورتي، كأنها تجمـع كل مجرات العالم، داخل ثقبها المليء بالطاقة وعن فخذيي الكمثريين، أما ما بينهما فهـو السـر الكوني الأعظم، الـذي خرجت منه الحياة وعسـلها والبشر وكل الآلهة.

خطوت متثنية متمايلة، أكاد أن أنسكب، أو أحلق، كأني إيقاعات الموسيقا على سـيراميك الغرفة الواسعة، باتجاه كيو الذاهل، فراح يسـتطيل سعادة، حتى بدا كالخيط رفعًا ونحافة وما إن جلست على الأرض ببساطة عارية، حتى تهاوى في حجري وأسند رأسه على فخذي وراح يبكي ويشهق ويذوب طالبًا الطماع: قبلة؛ فقلت:

سـأعطيك واحـدة طويلة، تبل بهـا ريقك، حتى يفنـى العالم وتشـبع عن كل النسـاء وتجعلـك الحب الكامـل النهائي وليس مجرد إله له.

انتبه واعتدل وتهيأ للعمل وامتشـق رداءه النصفي السحابي الأزرق ورجّل شعره القمري للوراء وتناول قوسه وسهامه ووقف كالجنـدي مسـتعدًا تمامًـا لتلبيـة طلباتـي حتى يفـوز بقبلتي الخالدة قلت:

أحضر لي البستاني هنا إلى غرفتي؛ وإن لم يرض، لأي سبب

وتعلل بأنه محظور عليه وعلى أي عادي عامي الدخول إليَّ، خصوصًا مخدعي، أو حتى رؤيتي ولو من بعيد، وهذا حق فلا يدخل النعيم مذنبٌ؛ أخبره أنني سآتي إليه، وسيهبط النعيم إلى الجحيم، وعليه تحضير سوط مناسب قوي مدهون بالزيت، حتى يضربني به، على ظهري اللين وصدري الشهي ووجهي الباهر الروعة، أخبره أنني أريد تجريب نار القسوة ولذة الهزيمة وبؤس المظلوم الفقير وعذاب الألم المبرح وأنني أؤمنه وأعطيه مكافأة سخية، سأرسل ابنته إلى الخارج وأدخلها أرقى بيوتات التجميل، حتى تعود مثلي أو شبيهة بي، إن كان يمكن أن يكون لي مثيل أو شبيه؛ وإذا فعل ما أريده وضربني ومزق جسدي وطفر منه الدم وشعرت بنار الخسة وهوان الإذلال وبؤس ظلام المهانة، سأغدق عليه الأموال الطائلة، لا يعرف بعدها فقرًا أبدًا؛ بل سأسلمه جسدي، بالزواج أو بدونه، ضاربة عرض الحائط بالدنيا وما عليها وبسلطة أبي وكرامته وهيبته بين الخلق جميعًا؛ فلماذا لا تتسلل نار الجحيم الهوجاء الضارية، إلى فِناء الجنة الهادئ الساكن.

تهاوى كيو من الرعب، ضحك أولاً، لم يصدق، ظنني أشاكسه، فكثيرًا ما أردت مشاكسته وتخويفه، بالطرد من غرفتي وقص ريش جناحيه النورانيين وكان يصدقني فهو ساذج، شأن الحب تمامًا، فهو ملاكه الحارس، لكنني أصررت ونظرت إليه بحدة، فتهاوى رعبًا وانخرط في بكاء رهيب؛ ملاك الفرح يبكي، اوووف.

❖ ❖ ❖

يا أبا القبح والهوان والقذارة، أنا الجمال كله؛ ومنذ ولدت، وأنـا مطمع الجميع، أطلقني أبي وأبَى السـلطة والقوة في الحياة أعيشها كغيري، ألحقني بأحسن المدارس وعلمني التعليم العالي كله، فإذا أنا عالمة فيلسـوفه أديبة موسـيقية رياضية، فينوس وشهرزاد معًا، حتى إن الناس خافوا من جمالي، كنت إذا سرت أنبتت الأرض في أثري الزهور وانبثقت منها النبوع وتتهد النسـيم وجرت الغزالات والفراشات وكل الطيور بجواري وأمامي، طيوفًا تخايل العيون، من فيض حسني؛ وكنت لا أكاد أرتدي شيئًا على جسدي، إلا مزقًا مثيرة للجنون؛ قلت:

إنني نار والملابس ماء يطفئها ومن الظلم أنا لا أهب الآخرين لوحتي النادرة كلها، ينعمون بالنظر إليها كيفما شاءوا، فالنظر لمس عن بعد.

كنـت أرى العـري والشـهوة والتمتع بالجسـد أمـورًا عادية، فمثلمـا أن الطيـور تطير والشـمس تشـرق، أنا جميلـة، لم أختر ذلـك، الطبيعة بي تنظر إلى نفسـها وهل يخجل الـوردة بهاؤها؟! كنـت إذا مررت بالرجـال في عربة أبي، أو سـيرًا يقفون أفرادًا متفرقة وجماعات متجمعة، مصعوقين والنسـاء دامعات متؤهات شوقًا والصمت البهيج المنعش يهدئ القلوب والأحلام تترى والنعيم يحل بالدنيا.

اجتمعت الناس وطلبوا من أبي: الرحمة؛ فهم غير قادرين على العمل والأمل والحياة العادية وأنا أمر بهم بكل الكبرياء والنبل، فأذيـب غلظـة الغليظ منهـم وأرقق القلب القاسـي فيهـم وأوقف المتحـرش والمغتصـب عن تحرشـه واغتصابه وأجعلـه المحترم

الفاضل الخاضع للرقة والذوق الحلو وهدوء النفس والبكاء الكريم، بكاء الرجال الشداد، أمام القدر المقدر، فمن يمسه الجمال يغادره الشر؛ اجتمع الناس طالبين من أبي الثري، صاحب السلطة والحكومة وكل القوة، أن يبعدني عنهم ويحبسني في مخدعي، حتى يستطيعوا التنفس والنوم العادي، قالوا له:

إنها يا مولانا تزهق أرواحنا، إنها فتنة، تشد قوس مشاعرنا إلى أقساه، حتى تمزقه تمزيقًا، فإذا بنا في نشاط أبدي وازدهار أبدي وضحك ولهو وسرور، كأننا جنود في حرب الخير، نسينا العادي والعادية والوخم والكسل وطفقنا للمرح نطلب وللكرامة نروم وللسعادة نسعى واندفعت كل فتياتنا تتمثلها في حسنها وملبسها وحركتها وسكنتها ووقوفها وجلوسها وكلامها وضحكها ونظرتها ولفتاتها وقيامها وقعودها صارت هي النموذج، يقلده الجميع، نساءً ورجالاً، فالرجال ازدادوا رجولة على رجولتهم، صاروا أكثر صلابة وسط الحسن، وهو يلفهم ويطوف بهم، ما أن يلتفت الواحد، حتى يرى الجمال بجواره، فيهنأ نفسًا ويحب الحياة..

يا مولانا ما عدنا قادرين على التحكم في لذاتنا وغنجنا وفتياتنا كل يوم في شأن جميل جديد وشكل جميل جديد ولغة جميلة جديدة ورقة وحسن يخترق الحجب والسبل حتى صارت نساؤنا عذابًا لنا وعتاة علينا، جميلات متكبرات طماعات في الحسن؛ نريدك أن تحبسها عنا، الآن وفورًا ولو قليلاً.

فاستجاب الأب الخائف على ابنته، من العين والحسد وقطاع الطرق والأمراض الخبيثة المنتشرة في جو الشارع وطعامه وشرابه

وأنفاس ناسه الوحشة العفنة كما قيل له وحبست الفتاة، فازدادت رقة وجمالاً، حتى إن لمحة واحدة لوجهها من شرفتها توقظ الميت وتجعل الرجال كلهم ينتصبون همة وهمًا؛ وكان كيو بجوارها سعيدًا يشعر بالحظ والنعمة، لمجرد رؤيتها كل يوم والحديث معها، لكنها راحت تمل وتحدث نفسها وتلوم جمالها وتقول:

ما فائدة الجمال المحجوب، غير المشع على القلوب، يرققها ويلهمها؟! ما فائدة الجمال لنفسه دون الآخرين؟! يطلون عليه، يستبشرون به خيرًا، يتأملونه بحب ويرغبونه ويكونونه وما قيمة الكنز الخبيء؟! لا يُعرف ولا يصل إليه أحد!! الجمال مراقب ومحظور ومسجون في الأغلال والقبور، والقبح سهل وميسور وحر طليق!! القبح إذن أفضل.

إنها تعيسة، لأنها ليست عادية مثل كل البنات العاديات، يخرجن ويدخلن، دون أن يلتفت لهن أحد، بنظرة مزدرية، أو كلمة نابية، يغامرن مع الصبية وهي لا، يجتمعن صحبة وهي لا، يعشن حياتهن: يتزوجن وينجبن أطفالاً وينعمن بحضن الابن والابنة..

وهي ... الكل ضدها، يريدونها صورة على الحائط، تمثالاً في زحام الميدان وعكارة هوائه، طيفًا حلمًا وليس واقعًا، يدرج على الأرض ويقتحم الشوارع والأسواق ويتنفس معهم الهواء، يريدونه خفيًا مخفيًا بلا مكان ولا زمان.

فإذا بها تطلب من كيوبيد أن يعاقبها أوسخ خلق الله وأقبحهم وأشرهم، ألا وهو البستاني!! يضربها حتى يمزقها تمزيقًا!! لتصير مشوهة كالآخرين والأخريات، ومن ثم تنعم بالظهور والوجود

الظاهر والحياة العادية!!

طلبت - نعم ولم تأمر - منه، أن يترجى! البستاني القاسي الفقير الغليظ السمج!! أن يحضر سوطه ويصعد إليها هنا، في براح الجنة ونعيمها ورقتها، ليلوثها بأقدامه مقوسة السيقان، ووجهه الشرير الحاقد الممرور، بل إنها ترجت! لا والله الجميل، بل دمعت عيناها اللؤلؤتين بوهج الذلة والمسكنة وهبطت أكثر وهمست خائفة من رفض الشيطان دخول الجنة، التي طرد منها عن حق، أن تذهب هي إليه وتتحني على قدميه، تقبلهما ذلاً ليضربها!!

وكان ملاك الحب الطيب يحسبها لاعبة، لاهية، يملي عليها مللها ذلك، فذهب معها إلى غرفة البستاني الضيقة، ليتحقق من جديتها أو لهوها.

❖ ❖ ❖

هي عشة حقيرة فقيرة، واطئة، لا، بل جحر أسفل جدار متهدم، يطمره لبلاب عفن، مغطى بالعنكبوت، رائحته عطنة عفنة كتيمة، كأنه مأوى قرد عجوز لئيم، في ركن الحديقة، ينحشر فيه، سرير قديم من الحديد، ياياته مهترئة مكسرة وحشيته ناسلة ووسخة وأرضه ترابية مزبلة، ملقى عليها منقد حديدي وقصعة من الصاج، بها جمر وجوزة، قلتها الزجاجية مسودة ومسخمة، ماؤها أصفر كبول البعير وعصاتها قصيرة من الغاب، ملفوفة بشريط من خرق البخل والإهمال، ومعسل وقوالح محترقة وغير محترقة، ناشفة طويلة وقصيرة، صلبة وهشة، وبراد

شاي أسود وكوبان أو ثلاثة متسخين، على صينية من الألومنيوم، مجعدة، غير مستوية وكان كل شيء مجعدًا غير مستوٍ، كوجه الفلاح القاسي، الذي اكتشفت بعد ذلك، أنه لا يكتفي بضرب ابنته المشوهة الخبيثة صائدة الذكور من الشارع وإنما يرفعها ويهبدها ويغتصبها وهو أبوها أو هكذا يدعي.

ذهبت جميلة الجميلات مع ملاك الحب، ليس إلى الجنة ونعيمها وخمائلها وغنجها وإنما إلى الشيطان، كان ذلك في المساء، لا.. في بداية الليل، لا.. في منتصفه، كان القصر المنيف الفاخر المهيب ومن فيه ساكنًا، لا حفلات ولا احتفالات، مما يقيمها الأب والأسرة السعيدة، في قاعات القصر الفاخرات، أو حول الشجر وأحواض السباحة، في الحديقة، بمناسبة وبدون؛ كان يومًا صامتًا حزينًا خبيثًا كأنه يوم حظ الفلاح الأسود؛ أمسكت فيه الشياطين روح الدنيا وكممت الأفواه وأسرت الحراس وردمت بالصمت كل صوت وأفسحت وسهلت، فتسللت الجميلة وملاكها الحارس عبر عتمته، إلى عشة الشيطان، طالبين قبسًا من كراهيته اللعينة.

ذهل البستاني الخشن، كما يذهل الكافر، الذي رأى الله في حلمه، نورًا على نور، جليلاً وجميلاً ومفارقًا، لما دخلت عليه سيدة القصر والحسن والجمال ومعها ملاك الحب الفاتن وقف مصعوقًا خائرًا وسط النور، في جلباب بلا لون، بلا ياقة، بلا قيمة، مهربدًا مثقبًا محترقًا بنار الفحم المتطاير، حافٍ قصيرًا قزمًا وسخًا كله، كهلاً، كأنه القرد دمامة وشرًا، أعرجًا سيره هو التقافز والتخبط عينه، كأنه يطارد كلبًا أجرب يهرب منه

دومًا، كشرًا فظيعًا حاقدًا بالفطرة.

لكنه كان حمار شغل، أرميه وحده في الحديقة يقوم بها، ينظف أرضها من العشب الزائد والفئران والجرذان والعرس والقطط والكلاب والطوب والزلط؛ أما العصافير فينصب لها خيالات المآتة، رؤوسها من القش وعلب السمن القديمة الصدئة، وعليها خرق قبيحة قديمة منفرة ويترصدها بالبندقية؛ ثم يعود للأرض، يخططها ويحرثها حرثًا بالمحراث العالي الغالي وإن لم يوجد لأنه يسربه من تحت لتحت، يمرره من ثقب الإبرة، أثناء الاحتفالات والهيصة والمهيصة والميغة اليومية ويلهف ثمنه ويطالب بغيره.

«لأنه هكّع وما بقاش ينفع جنابك ورميته في الخردة يا سعادة البيه الموظف محاسب الباشا».

أقول إن لم يوجد المحراث للحرث، فالفأس يعوض عنه، وإن لم يوجد الفأس، لأنه يسربه كالمحراث، فبأظافره ومخالبه النهاشة؛ ثم يبذرها وهو يخوض في الطين بالبذور، تثقل حجره، الذي يلمه من طرفه بيد، فيظهر لباسه الطويل الواسع المهربد المخرم كالمنخل ومنه تلوح إليته الضامرة الناشفة السوداء العفنة، تستند بالكاد على عظمتين قديمتين مسحوبتين من رماد القبور واحدة منهما معوجة يسميهما ساقين، ويغرس بكفه الأخرى، المليئة بحفنة يحفنها من حجره الثقيل والمضمومة بحرص عليها، ليوفر نصف الحبوب ويبيعه لصالحه؛ ثم يسقيها ويخوض فيها بين طيور أبو قردان البيضاء والسوداء، طويلة الساق والمنقار ملتقطًا الهاموش والعفش والنبش الطافي على

مائها ويزرعها بما يناسب الفصول وما يناسب المطلوب للسوق، لا يتوقف ولا يتريث، في عمل دائم ودائب وتهليب وتقليب وميغة، قبل ما تخلص الميغة، ويفوق صاحبها وينتبه للصغيرة والكبيرة؛ نار لا تخمد، يشذب الشجر ويجمع فاكهته ويعدها بالواحدة ويرصها في أقفاص الجريد، أو صناديق البلاستيك السميكة ويحمِّلها واحدة واحدة، على العربات ويحاسب المعلمين التجار، لابسي الجلاليب أو البزات، حساب الملكين، فهو مارحش مدارس، معلوم وحمار حصاوي في الحساب مفهوم، لكن مخه ذري، كمبيوتر، مابيونش، يحسب ويجمع ويضرب ويطرح اللي هيخنصره لنفسه واللي هيسيبه للباشا الإقطاعي بعد ما رجع الإقطاع، اللي ألغته ثورة يوليو معتذرة عن نزقها الصبياني، ويجمع النقود ويسلمها للصراف الموالس معاه ودفنينوا سوا، وعنده بيوت وطين هناك في القرية، وسمعته زي الطبل ومرهوب وسفاح فلوس، مجوِّز كل بناته ومتجوِّز على مراته اتنين وعنده بدل الولد عشرين كلهم متعلمين وأفندية وزيه مخلصين وبتوع مصالح مبيونونش؛ وفي الليل حارس للحديقة، يسمع دبة النملة فيها وفي حواشيها، لا ينام، ومزاجة الجوزة وضرب واغتصاب ابنته الفاجرة.

اللي هيه مش بنته ولا حاجة، لقطها من الشارع، اللي هو ميغة برده، زي الحديقة، كانت صايعة صغيرة مطرودة ماتعرفش من أنهي داهية، لمها وحممها وأكلها وخلاها بني آدمة واغتصبها وخلاها معاه خدامة ببلاش كده ولما كبرت وعرفت أنه مش أبوها وأنه بيغتصبها يوماتي ليلاتي، كأنها هتخلص زي الميغة،

هربت بجلدها ، فجبها من شعرها الخشن الوحش، في لحظة ، بفضل الصيَّع الشمامين المبرشمين، اللي واخدين بشلة واتنين في وشوشهم وصدورهم ودراعتهم ومبطوحين في دماغتهم، أصحابه، اللي بيمرر ليهم الخشب والحديد والأسمنت والسيراميك وكل اللي إيده تطوله من القصر وهي طويلة فشخ، يبيعوه ويتقاسموا ، سوا ، سوا وما خفي كان أوسخ؛ فراحت البنت الوحشة، تهبش في اللي رايح واللي جاي، يمكن تصطاد واحدًا فيه الرمق، يحن عليها ويتجوزها وينتشلها من الشرمطة، المجبورة عليها؛ مالقيتش ولا الهوى، فكانت تنقض في الليل على الشاب المار بجوار الحديقة، يتلزق في حيطانها، تثبته بالمطواة قرن الغزال وتدخله الأوضة بعد ما العجوز الخرب يكون خلَّص معاها وخلِص، وتركب الجدع المسكين، فكان العجوز يغير عليها ويضربها كأنه جوزها، وهي حلاله، أو مما ملكت أيمانه، لحد ما جسمها يشلب دم.

فملقتش قدامها إلا استخدام التقنية الحديثة وعصر المعلومات والتواصل عن بُعد والاتصالات السلكية واللاسلكية والإنترنت، فصورته بالموبايل؛ خبته الناصحة الواعية في ركن من العشة، حفرت فيه بأظافرها المسنونة، حفرة خبيثة في الحيطة الطين المايلة وهو بيغتصبها من فوق ومن تحت، يرفعها وينكتها ويقطعها تقطيع، قبل ما تخلص ورفعت الصور على الفيس واللي ما يشتري يتفرج وعلى عينك يا العالم كله..

وغيتوني يخالق هووو.

لكن قيل لها : ده فوتوشوب ومش حقيقة، ومش ممكن

يكون فيه عجوز بالقوة ديه، إيه ياختي، سوبر عجوز واللا أيه، طيب وأيه اللي وداكي عنده، أيه اللي زانقك فيه، فارقيه، ادلقيه، العبي غيرها.

فقلعت ملط ظلت ومشيت في شوارع مصر كلها، تحذر ناسها الغافلين، من الهكسوس وكل الهمج اللي احتلوها، في غفلة من أهلها، تصرخ وتصوت صوات حياني وتبكي وتفضحه الفضيحة الكبرى وتجرسه بين الفلاحين الغلابة الشرفاء والعمال الكادحين، الغيورين وأبناء الحي والحتة والشهامة والجدعنة والمروئة، وتميل على ده، وده واللي رايح واللي جاي:

ترضاها ياخويا على أختك؟

وتبكي وتلطم:

ترضاها يابا على ضناك؟

وتبكي وتلطم وتمزق شعرها وتعفس نفسها بالتراب:

طيب أشمعنا أنا؟! طيب مش مهم أنا،

طيب أنت فين يا ربنا، يا ساكن سماء حينا.

لكن قيل عنها مفترية وغبية ومصدية وبنت حرام ومجنونة وثورية، تطالب بالعدالة الاجتماعية وكافرة وشرموطة وتحب أكل القوطة وعندها زغطة ومبطوطة والحاج البستاني عجوز وكهنة وفلة وعنده قلة يشرب منها الطير المدبوح وأبوح.

انقهرت وانبطت على طيزها الموجوعة وحطت لسانها في بوقها وخرصت وسبته يدلع فوق لحمها الوحش، ليلاتي يوماتي وعلى كيف كيفه؛ وتركت الملك للمالك وعرفت حظها وعليها

أن ترضى بنصيبها وتسف التراب وتسكت، وهي حياة والسلام.

«وأن ماكنش عاجبك يا وحشة يا دميمة ياللي أنا راضي بيك خدمة إنسانية ارمي نفسك في البحر واشربي منه لحد ما تتكرعي».

يقول لها الكهنة الكهين، الخسيس؛ لكنها اكتشفت أنها لا تستطيع الانتحار.

«وليه أسيب الدنيا الحلوة أنا لسة طفلة صغيرة ويمكن تفرج اصبر على جارك السو يمكن يرحل أو تجيله مصيبة تأخده».

ولا قادرة على قتل الزاني الوسخ..

«هيرموني في السجن يا أختي اسم اللّه عليكي بين المجرمين بعيد عنك وعن السامعين وأعيش أوسخ مما كنت».

وإنها ضعيفة خائرة، مرة وولية منكسرة مالهاش حد ولا محتد أبدًا خالص وأنها من جماعة الضعفاء القهرانين على عنيهم وعين أهاليهم الأذلاء، فهدي بالها وغاصت في أحضان الضعف والذل ترتوي من خرائه العميم.

❖ ❖ ❖

وقف الفاجر مرتعدًا من هول المفاجئة، لما دخلت عليه العشة العفنة، الجميلة وملاكها النوراني؛ لم يظن قط أن النعمة والسخاء والحظ، يمكن أن يأتونه بهكذا وفرة وافرة، حتى كاد أن يجن، راح يلف ويدور حول الهانم الصغيرة، ابنة الباشا الكبير قوى، ربيبة العز التام، ربة الجمال، المتعلمة المتنورة الدلوعة،

أتت إليه هو الشرموط الكهل المتهتك، الخرب، كلب الفلوس، اللـي يبيع أبوه وأمه علشـان خاطر الجنيه، جاءه الحسـن كله، هبطت الجنة بين يديه، ففزع وارتجف وسقط على قدميه يبكي.

إن للجمـال يا أبا القبح والقذارة قوة عنيفة، ترج قلب الحجر فيذوب، فالجمال وليس القبح سيد العالم، وعذرًا لقبحك ودمامتك وكل سفالتك اللي أنا جايه علشان أرتوي منهم.

سـقط الحقير الدميم الأعرج علـى قدميه وزحف على صدره وراح يهذي تمامًا، لسـانه يتخبط في حلقه، يبرطم بلغة سـحرية أجنبية غير مفهومة، هل كان يعتذر؟ أم يرحب؟ أم يمثل؟! الكهين أبو الكهانة كلها، لا أحد يعرف، لكنه تعرَّق، كأنه في فراش الجمـر، فهذه أول مرة يأتي إليه واحـد من مخدوميه، إنهم حتى لا يعرفونـه، ثمة بينه وبينهـم جيش من الموظفين بالقصر، منهم مهندس الزراعة ومسـاعدوه والملاحظ ومسـاعدوه والمحاسـب ومساعدوه والحراس حاملو السلاح وأجهزة اللاسلكي، والخدم ومنهم الكناسـون والغسـالون والطباخين والسـفرجية المزينون واللبيسـة ومـا لا يدريه من غوامـض وغرائب وعجائـب القصور؛ يقومون على الخدمة من الألف إلى الياء وإعداد الحفلات والتلبيس والتدليـك والمكيـاج وإعداد المشـروب والمشـموم والمأكول ومراقبة الرقص والغناء ومتابعة وحماية ركض الرجال السكارى وراء النسـاء السـكارى، في الأفنيـة والأروقة والحجـرات وبين أشـجار الحديقـة والاسـتحمام عرايـا في مـاء النبـوع وحمامات السـباحة وركـوب الخيل؛ إلى آخر بذخ ولهـو المترفين أصحاب السلطة والحكومة بومه بومه.

فكيف وماذا ولماذا الغادة الحسناء الجوهرة الألماسة الخبيئة فـي قطيفتها عـن العالم ولصوصـه وعفنه كله، تغـادر حصنها الحصين وحدها بطولها الفارغ وعرضها الرقيق وتأتي له، يطوف حولها ملاك شارد.

قالت دون لف أو دوران بل ببراءة تشيب لها الولدان:

أونكل، بليز، ممكن تلسـوعني، زي ما بتلسوع بنتك كل يوم، بليز أونكل، لا ترفض بليز بليز.

فغشـي على الكهل فـورًا، إن لم يكن مـات، كأنه ضرب بمطرقـة الحـداد. لكـن ابنتـه التـي يغتصبهـا يوماتـي ليلاتي، زغرطـت، كان لسـانها يروح ويجي داخل فمهـا الصغير الدقيق الشهي، يضرب دون هوادة الهواء المضطرب، فيخرج منه بسرعة على دفعـات لاعبات لاهيات، يزغرط ويضحـك، فأخيرًا جاءت لها عدالة السـماء، في الليل البهيـم، لتنقض على البهيم وتجيب لهـا حقهـا تالت ومتلـت؛ انقضت عليه تفيقـه بقبضاتها في وجهه صارخة فيه:

اصح يا معلم، اصح يا أسـطى، ماتموتش دلوقتي يا كهنو، يا بدعو، يا عرص، يا معرص.

حتـى أفـاق من موتـه وراح ينظر من قبـره إلى الحيـاة العبثية فوقه: فهذا ملاك السـماء وتلك غادة حسناء تقول له بدلع الدنيا: أونكل وبونكل؛ دون تكليف، ثم الشيطانة مهتوكته اليومية، التي يمسـح بفرجها عضوه، كأنه الخرقة؛ كل هؤلاء اجتمعوا عليـه فجـأة؛ هب واقفًـا، نط وفط زي فرقع لـوز، الأراجوز ابن

الأراجـوز وقفـز وفر هاربًا والجري نصـف المجدعة وكلب حي ولا أسـد ميت ومن خاف سـلم، هرب الجبان ليس من العشـة ولا من الحديقة وإنما من الدنيا بحالها.

كان الأمر فوق طاقته، كان يعرف أن يوم الحساب قادم لا محالة وسينتقم منه اللّه العادل لا محالة، كان كل ليلة يرى في كوابيسه جهنم وعقاربها تطئة، كما يفعل مع اليتيمة المسكينة المقطوعة من شجرة الخير والشر معًا؛ كان يعلم أن الدنيا ليست نهيبه، ليست ميغة له ولغيره، من السفاحين وأن لها ربًا يحميها، يمهـل ولا يهمـل، لا يغفـل ولا ينام ومن يعمل مثقـال ذرة خيرًا يره ومـن يعمـل مثقال ذرة شـرًا يـره وها هـو يوم الحسـاب جاءه في يقظتـه وهو يسـتعد لتدخين الحشـيش المسـروق ويفرك عضوه بالدهـان المقوي، ليدسـه في فرج ابنته البريئـة، المصلوبة على سرير الحرام، أمام اللّه، كل يوم تناديه باكية صارخة لاطمة، واستغفر اللّه العظيم في علاه وكماله..

باللغة الفصحي الوقورة:

«أبي لماذا تركتني»

وبالعامية المبتذلة:

أنت فين يا جدع؟!

وبالمهالبية والشعرية:

موجود

واالا،

معبود

واالا ،

شايفني

واالا ،

كلا

كلا

كلا.

وتلطـم وترفـص وتجـأر ولا حد ولا محتد ولا حتـى الهوا اللي مالهـوش دوا؛ وهـا هـو الأب السـماوي، تنـزل دمعة مـن دموعه الشـريفة وتهـوى علـى الحقيـر، في هيئـة ملائكة وشـياطين، يضربونه ويمزقونه، في وكر الزنى، في جحر النصب والنهب، في المباءة، التي أسس منها بيوتًا، كلها حرام، في حرام.

الآن جاء الحساب أيها الكافر الزنديق:

فمن ربك

ومن رسولك

بل من أنت في سلم الإنسانية

ماذا فعلت حتى يرتقي الإنسان

نهبت الإنسان

وسرقته

واغتصبته

ظانًا إنك وحدك الذكي الخبيث الفاهم الناجي بين الضباع،

الآن ستدفع الثمن،

الآن ستلقى في حفرة الجحيم الأبدي، ألف مليون سنة،

الآن سيهتكون عرضك كما هتكت عرض المسكينة،

الآن سيمزقون لحمك بأظافرهم ومخالبهم وأنيابهم، حتى يتفجر منها الدم، كما فعلت أظافرك ومخالبك وأنيابك، في اللحم الحرام الشريف المغصوب والمغتصب.

الآن سيشقون جلدك بكرابيك النار، مثلما فعلت بجسد البنية، التي ظنتك من بني آدم.

أتعرفه.. أتعرف أبيك أيها القرد الدارويني.

«آدم»،

نعم.. إنه ابن اللّه، - يا ابن الكلب - وصاحب الجنة، عاقبه أبوه العادل، من أجل تفاحة صغيرة، صغنونة، أكلها دون أذنه، بينما أنت أكلت السحت والحرام واللحم البريء.

فماذا تظن باللّه العادل، الحريص على العدل، اللطيف، لا يترك شائبة في ثوبه، إلا وقد أحصاها وأزالها ليبقى في الطهر المطلق.

مسكين، يا كوتو موتو، اترتجف الآن، ترتجف دلوقتي يا فاجر، يا ابن الفاجرة، وتجري وتهرع وتختبئ، لكن أين وكل ما هو موجود في قبضة الجبار المتكبر.

قف أيها الحقير، الجرذ الخبيث؛ شلت قدمك؛ أنت تقف على أرض اللّه المقدسة؛ فكل ما خلق اللّه مقدسًا.

قف أيها الأنسي الشرير الغافل في موتك الحي.

قف واركع واسجد واطلب كل المغفرة وأهيل على رأسك الخزي كله.

❖ ❖ ❖

نعم كان الفلاح المسكين، يفكر في هذا كله - لا بد- ويسمع أصوات الضمير المستيقظ ولم يعد يفرق بين الوهم والحقيقة، لكن على مين يا عم، البنت المنتقمة جرته من مخبئه:

رايح فين يا بويا.

وسحبته بقوة انتقامها وركبته وهاتك يا طلطيش بالشبشب الزنوبة، لحد ما قطعته على وشه العكر، وعض ولكم وخربشة، وشتائم متنقية ومرصوصة رص وعفص بالتراب وكي بالجمر وتصفيق على اليدين وهز بالوسط وفين يوجعك حتى كادت أن تقتله فأفاق أخيرًا؛ صرخت البنت:

يا بركة دعاكي يا أمي يا للي ملحقتش أشوفك.

وراحت هي الفرحة المنتصرة تعلمه سبب مجيء السيدة الكريمة العالية:

جاءت لتنقذها من المهانة اليومية،

جاءت لتعطي الجاهل درسًا،

جاءت لتقول له إننا كلنا أولاد تسعة،

جاءت تعلن تضامنها معها، هي المسكينة المغتصبة وتقول

له هي الكريمة العطوفة:

اضربني كما تضربها؛ فهكذا يكون عقاب الأثرياء المتعلمين، عقاب نفسي يا من لا نفس له، يضعونك أمام أفعالك القذرة، حتى تراها بأم عينك العمشاء.

جاءت هذه السيدة بملاك السماء، ليقولا لك:

إنهما مع تلك الفتاة المظلومة وينبغي أن تأخذ منك حقها كله، أيها السفاح.

وصمتت البنت وراحت تنظر إلى سيدتها، باسمة ضارعة آملة، كأن أبواب السماء تفتحت لها هي الخاطية الدنية الغلبانة المظلومة أخيرًا وتهمس في سرها - لا بد:

«اللّه يا رب يا كريم، ما أنا عبدتك، اللّه، وأنت الكريم قوي؛ يا شيخ هتاخد عليَّ كلمة قلتها لك في ساعة غضب؛ والنبي، نبيك حبيبك، أنا طيبة، ولازم أكون طيبة، مش أنت خالقني يا رب يا طيب، ودلوقتي بعت لي أخواتي التايهين مني، اللي كان نفسي أشوفهم؛ شكرًا يا رب، يا رحيم يا حليم».

وراحت البنت تنظر باسمة متمايلة، كأنها الغصن المنتشي بالهواء الربيعي، الفرح آملة أن يكون ما قالته، هو الحق والحقيقة، أو شيئًا منها على الأقل.

قالت السيدة العالية بجدية مطلقة:

نو نو، بليز مس، أنا أريد أن يضربني عمو الشرير فعلاً، أريد أن أحس بالوجع، أجرب الشعور بالإهانة الإنسانية، أريد لجسمي اللين اللطيف الحساس هذا، تلقي صدمة الحقيقة اليومية

العادية، التي هي العنف والغباء صدمة قوية فتشقه شقًا، أريد تجريب الضعف، أن الناس تكره جمالي وقوة رقتي وحناني، وأنا «سوري» وحيدة وحبيسة جدراني، حتى إذا خرجت إلى الناس، أخرج متخفية في نقابي «البلاك» لا يظهر مني حتى عيني، فما فائدة جمالي إن لم أستمتع به وأراه بين الناس ظاهرًا، حرًا كريمًا مقدرًا، لقد انتظرت طويلاً، حتى يسمح لي بذلك، أو شيء منه، لكن الأيام تترى وأنا «سوري» حبيسة الجدران والنقاب، خفية مسجونة، لا يعرفني العالم كأني لست فيه؛ مللت «بليز» وأرغب في التخلص من جمالي، أريد انطفاءه، وبهجتي أريد زوالها، وأن أعاني وأتوجع وأذل «سوري مس» مثل الناس جميعًا.

«واي نوت» الذين يحمون القبح من الجمال، ويركبني الهم والصمت والنأي مثلهم؛ فالجمال والحب والرقة صاخبون وخطرون ومخيفون؛ وأبي يحميني دومًا ويمنعني من تجريب القبح، أو شيء منه وكذا «البوي فريند» أو خطابي، يعاملوني كجوهرة في صندوق وأنا لا أفكر في تشويه نفسي، أو جسمي، أنا فقط أريد تجريب المهانة اليومية، التي تجعلك قوية شرسة لبؤة، تعيش بين الضواري بقوة، لا تحجبك جدران ولا يخفيك نقاب؛ «بليز مس» اجعلي عمو الفاجر يفعل بي ما يفعله بك، حتى أكون مثلك طبيعية ويقبلوني الناس في دنيتهم القبيحة القذرة العادية؛ بليز بليز يليز.. خالص.

لطمت البنت المسكينة وجهها وفحت فحيح الحية ذات الأجراس هامسة من بين أسنانها:

أتظنين أن هذا العجوز الفاجر كان يلعب معي الغميضة مثلاً.

(وتصك وجهها بيديها الاثنتين وتقترب خطوة)

أتظنين أن في الألم والمهانة لذة وأنت محرومة منها.

(وتشد شعرها وتمزقة)

أتحقدين عليّ يا ست هانم وأنا خنفساء مفعوصة من الكل وتريدين اللحاق بي وأخذ شيء من مائدتي المسممة.

(وتشق ثوبها حتى مزعته تمزيعًا وصرخت):

انظري وتأملي، جسد بنت الشوارع والحواري والنواصي وتحت الكباري والغرف تحت السلالم ودورات المياة العامة العفنة أمو بلاش كده؛ المسي خشونة الجلد المقشف المتشقق وتحسسي ملمسه البارد الفاتر المريض، تأملي بطني الناشفة المليئة بالجوع وثديي الضامرين، من نهش العجائز وأسنانهم المسوسة ولعابهم المريض، وشمي رائحة لحم الخوف.

ما بالكم يا أغنيائنا يدفعكم الملل إلى الخراب، أتظنين نفسك حبيسة الجدران وهي جدران الكرامة الواسعة، ألا يأتي إليك أكابر القوم طالبين مودتك، بل نظرة عطف منك وأنت ترديهم خاسرين مكسورين؛ ألا تراقصين أشهى الفتيان وأرجلهم وأشرفهم في حفلات أبيك، ألا تأكلين الشهد وأحسن منه وتشربين ماء الحياة وأحسن منه وتنامين قريرة العين شبعانة مروية، تغنجين إذا أردت في حضن من تريدين من الآلهة الأرضية وكرامة العلو الشريف ترتمي تحت قدميك، أهذا كله لا يشبعك، فتطمعين في نقيضه، تتركين العليَّة وتهبطين السرداب العفن، طمعًا في تشمم جثث القبور، ألا إنك مثال للسخف فائق الفهم،

كأنك مسحورة يقودك سحر الشر كله إلى حتفك.

يا أختاه الكريمة بدلاً من أن تتزلي إليَّ خذيني معك، اصعدي بي في مداركك الكريمة، أشبعيني من جوع وأكسيني من عري واجعليني أختًا لك، تضمك بشوق العالم المحرومة منه، خذيني إلى بلاد الله الطيبة وأسمعيني حفيف الماء الزلال وأصوات الطيور ومري بي في طرقات المدن الفسيحة وميادينها بدلاً من قبري هذا؛ أختاه كيف يمكن لبائسة مثلي تراكِ وأنتِ الملاك الكريم تعذبين بيد خادم حقير سافل ابن سافلة، فاجر ابن فاجرة، كيف تطلبين ذلك! ولماذا بحق الشيطان الخبيث؟! لماذا حقًا؟! أقنعيني أنا الجاهلة؛ فلن يقنعني أبو الفلاسفة الحكماء بقبول المعاناة والظلم.

(وتبكي بحرقة)

آآه يا أختاه، لطالما أحببتك في وحدتي وقلت لنفسي: لن أهرب، لن أغادر طالما هي هناك، مثال الطهر والطهارة والحياء، فتاة الرقة، كنت أحتمل كل سخف العالم لأنه واقع عليَّ أنا ويبعد عنك أنت؛ هي حيلة لا أكثر، قلت أنا شيطانة وقعت عليها اللعنة وخلاص؛ وأنت ملاك ورضيت بهكذا وجود وعيشة والسلام؛ ولكن ها هي الملاك تأتي، لا لترفعني إلى مكانها بالجنة ولكن لتزاحمني في مكاني العفن وتشاركني الألم راضية به مرضية، تأتي هكذا مجانًا لتزيد من قبح العالم، فتقهر أملي الوحيد، ووهمي الوحيد، الذي عشت أرعاه بدموعي الدامية؛ كان يكفيني أنا المحرومة المهجورة، التطلع إليك من بين أفرع الأشجار وأنت تطلين بإشعاعك القمري الساحر المدوخ

عنـد الغـروب، على جوهرة النهار المنزلقة وراء السـحب البعيدة وأبكـي فرحًا وأنا أرى اللّه الجميل فيكي، أنتِ الأنثى الخيالية العظيمـة، موجودة وعالية وكريمة؛ أتحمل أنا بدلاً منها - عادي جـدًا - العنـف والغضـب والحقـد، أمتصة كله - عـادي جدًا - حتى الثمالة، دون أن يطرطش عليك شيئًا منه؛ فكيف تقتلينني وتغتصبيـن حلمي بك وفيك بهكذا سـهولة ومـا قيمة أن نكون اثنتيـن مهتوكتين ومغتصبتين من الأشـرار، ما الذي سـنضيفه إلى الإنسـانية من زيادة ألمها وقبحها، بدلاً من أن تعلي بي هناك معك في السماء.

صرخت البنت وصرخت وصوتت الصوات الحياني المسرسع الرهيب كأنها تطلق نفير يوم القيامة، حتى سقطت فجأة مغشيًا عليها بحدة وعنف كأنها انتحرت في البحر العميق؛

فهل رقت الرقيقة؟ هل أفاقت الغافلة؟ هل تراجعت المتهورة؟ أبدًا، بل تخطت المطروحة أرضًا، كما يتخطى الجندي الشجاع الجثث في الحرب، إلى العجوز الذاهل وأمرته بما جاءت من أجله:

خلصني يا عمو اضربني بقى؛ ذلني بقى، عايزه أحس بالقرف من نفسي بقى، عايزة أشوف اللي بيشوفه الناس كل يوم، حرام كده بقى، عايزة ماكونش أحسـن من حد بعد الآن، نزلني من نظرك، بص لي كأي شرموطة تجوب الشوارع على حل شعرها، واووو.. ماترحمنيـش خالـص، حتى لو صرخـت وطلبت الرحمة، انـسَ إني سـتك وتاج راسـك، خلاص تسـاوت الـرؤوس، والعبد وسيده على المحطة، انتقم من أبويا فيَّ، انتقم لكل الفلاحين من أسـيادهم، زي مابيقولوا الماركسـيين واووو، خد بتار اللي

ظلمهم ببوووه، فيَّ؛ أعمل ثورة بلشفية تروتسكية لينينية، واووو، وااااووو، سوري، وماتخافش، لساني هيكون في بقي، لا من شاف ولا من دري، سكتم بكتم، أيه رأيك يا عمو الشرير بقي.

قالت ذلك باسمه وهي تشير بإبهامها كأن تختم عقدًا بينه وبينها وتؤكد كلامها وكلام الأكابر لا يرد ولا يصد؛ وجلست من نفسها أمامه، تحت قدميه، لتؤكد كلامها عمليًا وبجدية السادة، الذين ما أن يأخذوا قرارًا على أنفسهم، ينفذونه فورًا وحالاً بالاً، جلست الكريمة العالية على ركبتيها دون أن تضع وسادة تحتهما، كانت مستعجلة قوى، وااااووو، فشكها التراب «فك فك فك يو» وتأوهت من ملمسه الخشن وذراته الجافة، فتحملت فطريق الآلام يبدأ بشكة ومن التراب نأتي وإلى التراب نعود.

ثم خلعت روبها الحريري وكان منفوشًا بالفراء الأبيض الكثيف الدافئ الدفئ، كله فراء في فراء، فراء دب مسكين، طورد من قبل صيادين عتاة قساة وسط جبال الثلج في أقصى الأرض، حتى قتلوه بالسهام المخدرة وهو يكاد يصل إلى مغارته المنحوتة في صخر الجبال، هاربًا منهم، يخب في الثلج على يديه وقدميه، وجذبوه بغلظة وذبحوه وشقوه وسلخوا جلده وأحضروه إلى الدباغين، في مصانعهم، فعملت آلاتها على الجز والقص والتهيئة والتنظيف حتى برق الفراء الأبيض على القماش الساتان كما كان يبرق على جلد صاحبه الحي وتحول إلى روب غالٍ فاحش، مثير للجنس أكثر من الهيبة وأرسل به إلى بيوتات الأزياء، ليعرض على الغادات الجميلات القاتلات برموشهن وخصورهن

وفلوسهن المسروقة من فقراء الأرض والمتمتعات بالجهد العبثي للصيادين القتلة، مدمري الأنواع الحية البريئة، ومطاردي لقمة عيشهم المغموسة بالعار والشنار؛ حتى لمحت فراء الدب على الروب الحريري عين مسؤول الأناقة والموضة الجديدة في القصر وكبير اللباسين فيه، فأتى بالكتالوج إلى ربة الحسن، منحنيًا بأدب جم ومده لها وراح يفتح صفحاته، صفحة، صفحة ببطء دقيق حتى تتملى ما تعرضه الصفحات الفاخرات اللامعات، من أشي وبشي وهشي، فأشارت بفتور إلى فراء الدب الذبيح، الذي لو أنه عرف، مجرد معرفة عابرة، أن فرائه سيعجب ملكة مصر، سيدة الفراعين كليوباترا، إلهة البشر، لأتى بنفسه إلى مصر واقتحم بابها المفتوح على مصراعيه طيلة قرون للداخلين الآمنين والناهبين والمستعمرين وواحد واحد يا حلوين.. ودخل جريًا وركضًا، يغني ويذوم ويجعر، حتى القصر ومعه سكين حامية مسنونة ومرهفة، تشق الهواء، وهي تمر فيه، فتفرق ذراته وتحدث انشطارًا وانفجارًا نوويًا لطيفًا وقدمها لها وبرك أمامها وقال بنشوة: أريحيني.

وما إن أشارت الآنسة، حتى كان الفراء بين يديها، قبل أن تنتهي من الفرقعة بإصبعيها، بفضل أسطول الطيران السريع، الذي يملكه أبوها الرأسمالي السفاح، تخرجه من العلبة الكبيرة الجلدية الفاخرة اللامعة وتستخلصه من السليوفان البالغ النعومة والقوة وتلقيه على جسدها العاري، فإذا بروح الدب الأبيض، المهيب، الذكر الوحشي، تستيقظ وتحيط ذكورته الخارقة بالأنوثة الطاغية وإذا بأنفاس جبال الثلج البعيدة الموحشة تصّاعد

بخرًا وضبابًا، حول أنفاس الغادة الملتهبة الشبقة.

وها هو الآن، ملقى به على أرض العشة القذرة المسودة المزبلة، تاركًا لحم الفتاة الطري الوردي الأصلي وظهرها الفاتن الطويل بمؤخرته الكمثرية الرهيبة الهول خاضعًا جاثيًا عاريًا خالصًا مجانًا دون ثمن، أمام الفقير الحقير الخشن، الذي لم يمسك سوى بالشوك واليأس والتراب والحديد، كدب أسود ضائع في غابة، كفيه مشققتين كبيرتين جامدتين كأنهما الأسمنت المسلح، كان الهواء الذي تخوضان فيه وتحركانه بشبق، يجرح ظهر الغادة المستسلمة لبدايات الخوف وطريق الضعف والذلة..

اقترب، دنى وتدلى وتدله وتنهد الذكر المحروم من نعمة الأنثى المرفهة ولحمها الغالي الندي، مسلوب الإرادة مجذوبًا مسحولاً مشدودًا مكهربًا لا وعيًا، بما يفعل، كأنه يحلم ومر بكفه على الظهر اللين بلا عظم، يتحسسه ويتأكد من حقيقته، فأدماه وجرحه وسمع الآهة التي لم يسمع مثلها في البلاد ولا بين العباد، فإذا بأبواب الجسد الكوني تنفتح أمامه وعالم الحور العين يتدفق في الغرفة الكتيمة، التي عاش فيها محرومًا من الدنيا، يربي فيها الأحقاد على أسياده، فردًا فردًا وجماعة جماعة وطبقة طبقة، عارفًا ومستقصيًا فجورهم وفحشهم وعلاقاتهم بالسلطة القاسية، ناهبة الشعب دائمًا وأبدًا ولم يكن حتى ليحلم بشيء يسير مما يجده أمامه الآن.

كان ينظر فحسب، من مخبئه، وراء الشجر في الليالي المقمرة وغير المقمرة وتحت أضواء الفوانيس الرومانسية، إلى الغادات اللاعبات اللاهيات الكاسيات العاريات الملطات

الظلتـات، مـع الرجال بين الشـجر المشـذب والمنسـق بمقصه الحديـدي الضخم، ينظر بـكل حرمان الدنيا، ينظـر إلى حياة الآلهة وهم يتغنجون ويشـربون ويتعرون في جنتهم وهو الشـيطان القرد، مطرود محفور له حفرة، مدفون بها، ينظر دامعًا ذاهلاً، مستمنيًا على نفسه.

نسـي الفلاح نفسـه والملاك الباكي، مـلاك الحب الطاهر الرومانسـي، كيو المسـتفذ قرفًا من الأرض وما عليها، يبكي ويحلم بالسحب الطاهرة وفراشاتها وعصافيرها وزهورها وسحرها الخلاب وسهامة اللطيفة وهي تتهاوى من بين السحب الحالمة عند الفجر وفي الليل وهو جالس على شـق القمر يغني بسـعادة للخير والهناء والحب..

ومر القرد بكفه المتحسسة تحت مؤخرة الغادة الجاثية على أربع، مر تحت العرش مر تحت السـلطة والسـؤدد والهيبة والعزة والكرامة والخلود، مرت كفه المرتعشـة الخسيسـة السارقة، تحت لحم الغزال القابع مستسلمًا له؛ ولطشها، متذكرًا ما كان يفعله السـادة في الحديقة وأحواض السـباحة مع الغادات ليلاً: لأ عيب كده يا مراد.

: لامافيناش من القرص.

: لأ.. أوف بقه.. كده هزعل.. حد يشوفنا.. بابا.. ببووووه..

تفززت الجميلة وشهقت وقفزت ونهضت وقعدت، بعدما سحب من تحتها الأسـاس المكين، راحة الراحة وتهاوت في ماء العدم وكان شعرها السـايح النائح الثقيل الطويل اللامع، يشتعل فوق

ظهرها كله، حتى المؤخرة الشهية الممسوكة الآن، المدعوكة الآن، المهصورة الآن؛ مص خبير الاغتصاب المجاني إصبعه، قبل أن يدخله بغشمية وخشونة غبية في الفرج الفاخر العاري البض الزبدي، فرج السلطة المفشوخ على آخره، فشهقت الأنثى وراحت روحها لربها وغابت عن الوعي؛ شلَّح الفلاح المضروب بالكرباك من أسياده، هو وأجداده كلهم، جلبابه العفن وسلت لباسه المثقب كالمنخل وهو يلهث ولسانه يخرج مع ريقه، الكلب.. وراح يبل عضوه الفرح الأعمى الغليظ، الذي انتصب دون مراهم مقوية، فزعًا أمام باب الجنة وزنهر وانتعظ واحمر رغم سواده، ووساخته ونجسه، فما كان القرد بحاجة لشرب الخمر ولا الحشيشة حتى يأتي بشجاعة الشجعان؛ ألقى الفلاح الحقير القديم، الفتاة الجديدة الطازجة اللي على الزيرو، على وجهها وركبها وراح يزأر كالأسد ويصيح بجنون:

خلاص، خلاص، مش عايز حاجة تاني يا رب، ارميني في نارك، طظ في نارك، أنا دخلت الجنة وأحسن من الجنة.

والفتاة الثرية المرفهة تبكي وتصرخ بكل قوتها رعبًا وألمًا كما حلمت وأرادت في وحدتها هناك في الجنة.

خلاص يا عمو، خلاص يا عمو، بليز بليز بليز بجد.

وعمو العنكبوت قابض عليها بجد وبجنون، يطعنها كالقط، يحفر الهواء بقدميه ويدفع نفسه فيها بحدة ودون رحمة وهو يزغرط ويصيح:

كله مكتوب ولا مهروب من المكتوب وحظك يا محظوظ

وقيراط حظ ولا فدان شطارة ونعمة ربك للكل وشرموط اللي ما يشوف زعبوط ولا يتزعبطش.

والفتاة سال من فمها اللعاب ومن أنفها المخاط ومن فرجها الدم وتمزق شعرها، من الشد والجذب والجنون والضرب، نعم راح الفاجر يضرب الفتاة بكل عنف «أسد عليّ وحمامة على غيري» بكفه وقبضته كما يفعل مع الأولى اليتيمة الفقيرة القبيحة يوماتي ليلاتي.. صارخًا:

أنا الراكب يا باشا، أنا الفارس وفوق حصانك، أنا الرجل يا خولات، يا فسده يا مرتشين، يا هليبة بالقانون وبالعافية وبالحظ وبالبركة وبالشيطان.. حقي وجه لحدي، وكلنا ولاد تسعة، وولاد وسخة.

وراح يضحك ويطعن ويضرب ويشخر ويضرط والفتاة اللطيفة الهادئة الناعمة، تجعّر كالبهيمة المذبوحة، وتلقف الهواء غارقة في العرق والمخاط واللعاب ورائحة الحديقة ودخان الحشيش والفحم والفقر الخسة والغدر والدم وكل التاريخ القديم اللعين.

برقت صورة قديمة خيالية أمام عيني يا عمو القبيح، فيما القرد يغتصبني بقسوة، صورة زوجة شهريار، الملك الأسطوري، رجل الرجال، التي كانت تنتظره حتى يغيب عنها، وراء الحيوانات يلهو بصيدها كعادة الملوك قديمًا وحديثًا، فتنادي عبدها الأسود القبيح الحقير البشع الخلقة، فيأتي إليها متهدل اللسان كالكلب الشبق ويأخذها تحته ويطأها ويشبعها عناقًا وتقبيلاً ولحسًا ومصًا وهي تملأ الفضاء بجئيرها، كأنها لم تدخل تحت رجل قبله أبدًا؛ كنت مستغربة كيف لملكة تحب

رجـلاً قبيحًـا عاديًا كناسـة الخلـق لا ثقافة لا حضـارة لا قيمة هـو مجرد طـرح بدائي أقل من حيـوان، وتعطيه نفسـها راضية مرضية مسـتلذة منـه أكثر من زوجها الملـك الجميل الصحيح البدن المعطر الفاخر أبو العزة والكرامة.. وسألت ما هو القبح إذن؟ وما طعمه النتن؟ ورغبت أن أفعل مثلها، أن أحضر ذلك العبد القبيح، قردي الوجه والجسـد، حتى رأيت من نافذتي الجانبية البسـتاني وهو يهبد البنت علـى ظهرها، كما يهبد النعجة قبل ذبحها ويركبها، فترفسه بعزمها، فيفشخها، ويدخلها ويتقافز فوقها بين شـجر الحديقة كما يفعل السـادة ليلاً بالضبط مع نسائهم وبنات ليلهم، وهي تنهشه وتخرم له عينه وتنادي على ربنا لينقذها من الشـيطان، والشـيطان يدكهـا بقبضته حتى تقيء دمًـا فكنت أرتجف من النشـوة وأفكر فـي أن أكون أنا بدلاً منها ولو لمرة؛ وها أنا تحته تمامًا أصرخ وكيو يبكي، أتوسل وكيـو يحترق والعبد القديم الصعلوك خـادم الملوك يفجر في نساء أسياده وينتقم منهم في درتهم الغالية، التي طرشت دمًا من فوق ومن تحت وزهقت أنفاسها وعرفت تمامًا ذل الجسد وإهانة الكرامة وتعرت من كل شيء.

وأخيرًا ملأ العشة الحراس ببنادقهم الساخنة وأحاطوا بالقرد الزاني وسـرعان ما طرحوا جثته هامدة مهربدة كالغربال من كثـرة الثقوب التي أحدثتها الرصاصات التي انهمرت عليه من البنادق السريعة الطلقات، حتى أفرغت كل خزائنها وهو يرقص رقصته الأخيرة ويرتعش ارتعاشـته الأخيرة ويضحك ضحكته الأخيرة وتهرب روحه الخبيثة من ثقوب جسده المتهرئ المتطاير

من فوق بنت الباشا الدلوعة الكريم مايونيز؛ هكذا خلصوها من القرد وغطوها وأخرجوها؛ فيما غيرهم يهرسون ويطحنون ويحرقـون الباقي من جثـة العبد الحقير اللئيم، ثـم نثروها في أرجـاء الحديقة التـي طالما نهبها وامتص شـهدها وظنها جنته الخالـدة؛ والبنت اليتيمة حواؤه المجانية طيلة الوقت قبل وبعد دخول حراس السـلطة والشـرف الذي يراق علـى جوانبه الدم، كانـت تصـرخ وتصـوت وتضرب القـرد الزانـي الراكب فوق سـيدتها بالشبشـب والجوزة والقوالح وجمر النار وبراد الشـاي وتقفز فوقه تعضه وتنهشه لتبعده عن حلمها الذي يهتكه أمامها صارخة:

ليـه ليه ياسـتي كده، ده ما يسـتهلش ظفرك، حـرام عليك نفسك، مش أنا الغاية، مش أنا النموذج اللي تحبي تكونيه، ليه ليه يا ستي ليه؛ يا رب أنت فين يا رب، سايب عبيدك كده ليه يا رب، اغضب يا جبار، هدها، هدها، دي خربت خلاص.

وراحت تخوض وسـط الرصـاص، مواصلة ضربه بشبشـبها البلاستك وقد جنت تمامًا تبكي وتضحك ثم تخرج متخبطة من العشـة والحديقة إلى الشـوارع تتكفئ وتقوم وتبكي وتشير إلى أشياء خيالية لا يراها إلا هي وتحدثها بلغة أجنبية متقطعة متشظية حزينة: نو نو، سوري بليز.

وتشير إلى الفراء الغالي الذي لملمته من الدم والوسخ وارتدته وراحت تقبله وتبكي: سوري بليز نو.. نو، فك فك فك يو...

وبينما بنت الشوارع إلى الشوارع التي جاءت منها مظلومة عادت إليها مجنونة، وضعت الغادة المهتوكة المغتصبة بين أيدي الأطباء

الرحماء المتحضرين في الخارج، يرعونها يومًا وشهرًا وسنة تلو السنة بدقة حتى عادت إليها أنفاسها ونفسها الرقيقة الجميلة مجددًا أو هكذا ظنوا الدكاترة العلماء الغافلون، ونهضت وقامت تطلب لباس الخروج فسمح لها أبوها بغير النقاب أخيرًا وإغلاق محبسها وطرد حراسها.

وقبلوها الناس بعدما باتت مثلهم عادية مكسورة مذلة مفضوحة مشوهة النفس مغتصبة، مرة، وولية، ضعيفة ومنحوها ختم القبول والوجود بينهم كما يعرفونه ويألفونه: باطل سخيف ضعيف.

ومن كانت جميلة قوية وصارت غير ذلك، لهثت تبحث عن المزيد من الضعف وجماعاته العلنية والسرية المميزة والعادية وأرسلت الرسل والرسائل الفورية، حتى دلوها وعرَّفوها الطريق وسير البطريق والخروف والعنزة والكلبة فسلكت سكة الحقارة والنذالة الأصلية؛ وقيل لها: اذهبي إلى أبينا العتيد، أبو الضعف الأضعف علشان تختميها، فسيساعدك ويعرفك ذل الذل وهوان الهوان وزعبطة الزعبوط أكثر بكثير مما عانيتيه مع عمو الشرموط.

فاستقلت عربتها والتحقت بالحشد الضارع المسارع، وتوسدت محافتها وصارت واحدة من القطيع تسير في الركب طالبة الضعف الأضعف وسط حراسها يحيطون بها ويحمونها ويحملونها بتواطؤ من أبيها الذي رأى عقلها يعود، والدلع والمياصة القديمة تغور وصارت مثلها مثل كل البنات العاديات الفاترات.

دفعها أبوها وأبو السلطة والحكومة، إلى الرحلة الميمونة، لعلها تعود منها مجبورة، وواحدة أخرى مش بتاعة مشاكل خانعة راضية موجودة ومش موجودة.

آآآوووف ياعمو آآآوووففففف.. كل شيء من أجلك تركته، فاقبلني يا ضعيفي وأنزلني عندك منزلة الذل الأذل والقبح الأقبح، فأنا ما زلت من الضعف بعيدة، وفي القبيح شحيحة، مثل كل العاديين هناك.. فاجعلني مثلهم.. حتى يستريحون ويريحون... آآآوووففففف.

❖ ❖ ❖

بررررر، هرررر.. هدير البربرة والهرهرة، لا يتوقف.. إنه عطايانا لإله الشتاء، حتى لا يخفف عنا وحشته وقسوته، فنحن مهووسون بالضعف نريده خالصًا، ولأنه غير موجود، نحتاج القوة لنوجده، مثلما يحتاج الجائع قوة الجوع وهي نوع من الشبع الوهمي يحتمل بها جوعه؛ وحوش الثلج القديمة كالدب وسيد قشطة الهائل وطبعًا ليس هذا اسمه الحقيقي وإنما اسمه الشعبي ونحن شعبيون وجهلاء لا نعرف حقيقة الأشياء ولا أسماءها، إلا من الشارع، الذي تسيطر عليها السلطة، والأفواه التي تتكلم كلام السلطة؛ تلك الوحوش الضارية، ما أن يقترب جيشنا العرمرم بعاصفته القذرة المميتة، تهرب ليس خوفًا طبعًا وإنما قرفًا، نفسها بتغم عليها من رائحتنا وأشكالنا فنحن خراء، كائنات من زبالة وغائط، أجسادنا مليئة بالدمامل والبثور، عيوننا المجهدة حمراء دم، كأننا الشياطين أو كائنات الزومبي الميتة الحية؛ نتدحرج

ونتدافع صارخين باكين في الظلام والخراب والصقيع والبرد ننكفئ ونقوم وندوس بعضنا ونتحرش ببعضنا خائرين ضائعين بعيدًا عن النور والحياة كأننا دخلنا رحم أمهاتنا مجددًا ، نريد أن نولد من جديد ، ليس في صورة كريمة طيبة نظيفة ولكن أوسخ مما كنا عليه ، لنتقوى ونتحمل الذل المماثل أو يكاد لذل أبينا الأذل.

❖ ❖ ❖

جهنم الحمراء

ولجنا في فوهة فرن ضيقة واطئة حارة جهنمية، هي ثقب في باطـن الأرض، حفرة من حفـر الجحيم، قديمـة صامتة مهجورة مظلمة، حتى الاحمرار، يخرج منها هبو سـاخن ممرض وعفارة دخانية، كأنها تسرب حريقًا، غصنا فيها أفرادًا وجماعات دون توقف، يدفع بعضنا بعضًا دون تريث؛ أرضها بركانية، شـردها نـار لافحـة تهري الوجوه وتشـوي الجلـود، هواؤهـا الخبيث ميَّع نفوسـنا، زهقنا مـن بعضنا وفرقنا عن بعضنـا وطحننا وأمرضنا أكثر وأكثر وصار كل منا يتخبط في الدخان وحده.

كان الحريـق في كل مكان وأصوات صراخ وبكاء ونعيق وزهق فظيع، تتصادم في الهواء المخنوق، فوق أرض رملية مديدة ساخنة تبقلل، كأنها تشوى على صفيحة من جهنم، نغوص فيها حتى ركبنا، نسمع طشيش عرقنا، الذي يتبخر في الهواء اللافح، قبـل أن ينزل على الرمل المشـوي، المتصاعدة منه هنا وهناك، جـذوات النار، فكأننا فـي أرض الجحيم عينها، جهنم الحمراء الخالصـة، الحقة الحقيقية، أم العذاب، مضاءة بحريق كبير، ينفجـر فجأة هنا وهنـاك وتنبثق منه كتل حية مـن النار، كأن الأرض تتقيـأ دمًا من نار، يندفع كالسـيل في الأخدود الضيق، المحشور فيه طابورنا الطويل والمنحدر بنا إلى الأعماق المريضة المرعبة، فإذا بنا نشـوى شـيًا؛ تحيط بنا غيمة كبيرة من البخر السـاخن، كأننا في وعاء ضخم نطهى فيه، كفر نرزح تحته، لا نعـرف هل صعدنا من حفرتنا الشـتوية، إلـى الصيف العجيب

المرير هذا ، أو نزلنا أكثر في حفرة الجحيم العجيب المتناقض السحري الحلمي الكابوسي، أم ماذا بالضبط.

ونحن عادة لا نهتم بمعرفة المكان الذي نوجد به ولا الطقس ولا التاريخ ولا الجغرافية فنحن قدريين، نوجد فحسب ونتأقلم فورًا وننكفئ ونخضع.

شرد جحيمي لعين وملعون، ذوَّب جلودنا وسلخ أقدامنا ، كأننا نسير على صفيحة من صفائح النار فعلاً؛ كنا نمشي بصعوبة ، محشورين، تنزلق وتتظفلت أجسادنا الغارقة في العرق، على بعضها ، في بعضها ، كعجينة واحدة ، في وعاء ماء، فوق موقد قوي نشيط، نتنفس دخانًا حارقًا وننفخه، كما يفعل لاعب السيرك الذي يشرب الجاز وينفخه في شعلة ، فيحدث أكبر كتلة من النار، تحرق وجهه ومَن أمامه، ننحدر كيفما اتفق عميانًا ، في طريق الشيطان، الذي يقودنا كيفما شاء، إلى سيدنا ، فنحن قطيع والقطيع يتبع سيده ولو في الجحيم دون تزمر؛ وكنا نصرخ، ليس من الألم المبرِّح الملعون، فما الألم ونحن طالبوه، إن لم نكونه، بل الجحيم هو مكان رياضتنا ، إنه نادينا الحبيب، مكان لعبنا ولهونا.. نحن نصرخ إذن لنتسلى أو نصرخ كذبًا ورياء، ليثبت كل واحد للآخر أنه يتحمل أكثر منه ، ويتعذب ويريد العذاب أكثر، كأنه يتحدى الجحيم الخانق المظلم المضاء هنا وهناك، يغطي دخانه كل شيء ونحن كالحطب، نندس أكثر وأكثر في رماده الحارق وجمره المشتعل، أو نصرخ لأننا لا بد أن نصرخ وإن لم تدعُ الحاجة إلى ذلك وإنما نصرخ حتى نظهر معاناتنا ، فنحن لا نخجل من إظهار معاناتنا إن لأنفسنا ، أو

لغيرنا ، نحب أن نبدو في وضع الضعيف الذليل المهان، نستمتع بنظرات الشفقة ، تصب علينا ، ننتشي بها ، هي ماء تطهرنا وكل مبغانا ونصرخ أيضًا محاولين التفوق على بعضنا بالصراخ، كل منا يجاهد في إطلاق صرخات أقوى وأكثر ومنا طبعًا الماهر في الصراخ الملذ اللذيذ ، كأنه يغني: ياليل ياعين وذلك طبعًا ليتفوق بعضنا على بعض، فيتحمس المنهزمون ويبادرون إلى صراخ أشد ، حتى يغلبون المتفوقين منا وينقلب حشدنا مناحة وخليطًا من فنون العديد والبكاء والنواح والغناء والإنشاد والحكي المقطع للقلوب، جالبًا الدمع من محاجره؛ فمنا البُكاء لذات البكاء ، فنان البكاء، الذي ما أن تراه يبكي، حتى تجد نفسك تبكي دون أن تعلم ودون أن تعرف لماذا تبكي، إنه إبداع الضعف ، فحتى الضعف له إبداع؛ فهذا يبكى بحرقة تذيب القلب، ينهنه ويرتجف ويتفزز ويموء كالقطط ويعوي كالكلاب والدموع تغطي وجهه وقد زم فمه كطفل، سحقت عائلته دبابة ، أو أندك نيزك في الأرض ففلقها وشطرها وتناثر ناسها في الفراغ الكوني وضاعوا إلى الأبد؛ وذاك يبكي برقة وإباء وكرامة ، تجعلك تنهار كمدًا ، وتحس باليأس التام ، فكم هو صعب بكاء الرجال الشداد الهادئ الكتيم الممرور السخين وقد ذابت قلوبهم، من الهم والصبر وكثرة البلايا؛ وتلك تصك وجهها ، بكلتا كفيها وقد فردت أصابعها عن آخرهم وحجَّرتهم وراحت تهوى على وجهها بسرعة وقوة وحسم وجد واجتهاد وإخلاص، كأنها تعاقب نفسها بنفسها ، على جرم الجرم، ارتكبته غافلة وغفلانة وتعبانة منه وقرفانة من نفسها ، تريد تحطيم كفيها وليس وجهها فحسب، جالب المصائب وفمها باعث الكوارث وخدودها تجذب الهزائم،

فوجهها ذاك بوابة الخراب، تريد تحطيمها وهدمها بسرعة وقوة وهبد ورزع، حتى لا تترك للهواء الدخول إلى فمها، فإذا بها تنهار مكبة على وجهها، مغشيًا عليها، مصروعة، جسدها يرتجف وتبرطم وتبربر وتقيء الدم.

وآخر يضحك ضحكًا ممرورًا، أشر من البكاء، فشر البلية ما يضحك، ضحك خبيث بطيء موهأهئ بضعة نفس ومكر السنين العجاف كلها، يروم التعبير عن المأساة البشرية، التي هي معقدة وصعبة بلا حل واسعة لا حصر لها، مديدة بلا حد وهو الضحل، غارق بها، تضربه الأقدار من أعلاه وأسفله ومن جانبيه، كأنه في البحر المحيط العاصف وهو بريء، لا ذنب له في هذا كله ولا يعرف لماذا اجتمع الكل عليه وهو طيب جدًا وابن ناس كويسين ونفسه حد يفهمه هو بس عمل أيه ولو الغلط عنده هو مستعد ينضرب بالجزمة على رأسه، بس يفهم، لكن لا يجد أحدًا يفهمه وإن وجد لن يستمع له:

هيقول أيه ولا أيه بس، خللي اللي في القلب في القلب؛ واسكت يا لساني؛ والسكوت علامة الرضا؛ واللي ما يرضى بالخوخ يرضى بشرابه المر؛ واللي قرفان من ريحة بؤه، بكرة تشم ريحة طيزه؛ وسنة سوده وراها سنة سوده وراها سنة سودة؛ وهي خرابانة خربانة؛ وما فيش فايدة ولا عايدة ولا هناء ولا شرين؛ والموكوس موكوس حتى ولو علقوا على بابه فانوس؛ وينهار أزرق ومطين بطين علينا كلنا.

واديني في التافه وأنا أحبك يا فننس؛ واللي خدته القرعة تأخده أم الشعور؛ وجت الحزينة تفرح ما لقيتش لها مطرح؛ ويا

لهوي، يا دهوتي، يا أختي..

خراب شـامل يحيطـه، آت إليه من كل مـكان وهو حائر، يضرب كفًا بكف ويبتسم:

الله جاب الله خد الله عليه العوض ومنه العوض؛ حظي كده، بختـي كـده؛ أنا فقري من يومي؛ مافيش منـي رجاء ولا فايدة؛ وطولها زي عرضها؛ وفي الآخر بعد ده كله، هناخد قطنة؛ وننام في شبرين؛ ويردموا علينا؛ ونروح في الوبا؛ ولا حول ولا قوة.

ويضرب كفا بكف ويبتسم ويواصل السير: آآآآه المكتوب مكتوب؛ واللي انكتب انكتب.

ونواصـل الصراخ والنواح، عارفين أن هـذه الرحلة المكثفة مـن العذاب والذل والهوان هـي رحلتنا في الحيـاة تمامًا، رحلتنا مضغوطة، مجمعة، نموذجية، نحتملها هناك بين الناس، الناس، لكـن نضعـف أحيانـًا، فيشـعر أحدنا بشـيء ما مـن الكرامة والتسامي وتتسرب إليه الرغبة في الوحدة الحرة الجميلة والاختيار والتفرد، فيقلق ويفزع ويعتبر نفسه مريضًا وفي خطر داهم، فيأتي إلى هنا فورًا، ليأخذ الجرعة هذه المكثفة من الانحطاط، حتى يعود إلى العالم الخارجي، قويًا محبًا للذل والهوان.

والخدم يسوقوننا قطيعًا مفرهدًا من الحر والسخونة والدخان والنار والعرق النتن والبول والخراء والقيء والبكاء والنواح ولطم الخـدود والوجـوه والضحـك المر، نتطـوح وندور حـول بعضنا، منزلقيـن مظفلتيـن معجونين مهروسـين مطبوخين، فـي الوعاء الجحيمـي هـذا، نلقـف الهـواء المسـمم لقفـًا، وجوهنا سـوداء وحلوقنا جرداء وصدورنا ضيقة وبطوننا خاوية، على اللحم وجلودنا

ملزقة في بعضها وفي نفسها مسلوخة ممزقة مجروحة، تنزف دمًا وصديدًا وأجسامنا كلها سائبة ونائمة وسكرانة، تتخبط الرؤوس في الرؤوس والصدور في الظهور وفي الصدور والعين في العين لا تراها والأنف الكاره في القفا الملعون والأيدي تمسك الشعور وتهبش ما أمامها وما خلفها، تريد الخلاص ولا تريده.

رقصة جماعية، رقصة أتون الجحيم، نهر التلظي، ننجرف فيه وننحدر به والخدم مكبون علينا من كل جانب، في نشاط يواصلون دق دفوفهم وضربنا وشتمنا ولعننا والبصق علينا، يصبون كل الكراهية التي لا يجيدون سواها، فوق رؤوسنا الفارغة الساخنة المحترقة:

مَن الهمج الرعاع الأنطاع الخونة السحالي العرس الفئران الأرانب؟

نحن ومن غيرنا.

من السواد الأعظم الأبكم؟

نحن.

ملح الأرض؟

نحن.

العامة؟

نحن.

العاديون؟

نحن.

اللمامة؟

نحن.

الأوباش؟

نحن.

لا يفكرون.

نحن.

ولا يفهمون.

نحن.

يعيشون فوق أرض لا يعرفونها.

نحن.

وتحت سماء لا ينظرونها.

نحن ومن غيرنا.

من الأغبياء؟

نحن.

السمجيون؟

نحن.

الظلال تمشي وتلوط في الأركان؟

نحن.

الحاقدون؟

نحن.

الممرورون؟

نحن.

الحاسدون؟
نحن.
المتمنون ولا يسعون لتحقيق ما يتمنونه؟
نحن.
المفعول بهم وليسوا فاعلين؟
نحن ومن غيرنا.
لا أهلاً بكم في بيتكم يا حقراء،
يا أبناء الحقراء.

ويضربوننا بالمطارق وأسياخ الحديد، تشق جلودنا العارية الوسخة القذرة، المملوءة بالدمامل المقذعة الرائحة العفنة المقيئة؛ وتواصل رحلتنا المهينة هرسنا في طريقها هابط المنحدر الواطئ المنهار، تزحف سيقاننا في الرمل الحارق، والغيمة الكثيفة تدوخنا والعرق يسح منا حتى الجفاف التام، الذي نبدو فيه كأوراق الخريف الناشفة تتكسر وتتفتت تحت الأقدام؛ نشعر بالعطش الحارق وننكفئ على الحجارة الصغيرة نلحسها، فلا ماء إلا المهل يشوي الوجوه ويحرق الحلوق ويتنزل علينا من الغيمة الماطرة ماء مغلي وسخًا ومسممًا ويسقط فوقنا المخاط الطيني، وتتهاوى علينا طيور ميتة سوداء، كأن الغيمة صفيحة قمامة تفرغ علينا، ونحن نسير تحتها موتى أحياء، ننزف عرقًا مخلوطًا بالدم، من ضرب الأسياخ التي تهوى على رؤوسنا وأجسادنا، فنندك تحت الأرجل، فتدوسنا الأقدام بلا وعي أو حس ونقوم باكين شاعرين

بالضياع ومدى الذل والمهانة وأننا أقرب إلى الاتحاد بأبينا ، أبو الذل المذلول، لنتحرر من الذل بالذل ونكونه ونصير نحن الذل الخام الأصلي النقي ونمضي شاكين باكين صارخين نتمايل ونميل وننوح مع دقات الدفوف المرعبة ونرد على الخدم القساة مؤمنين على حقارتنا وتصاغرنا ، لاعني أنفسنا وأهلينا والأرض التي تأوينا والسماء التي تسقفنا والماء والهواء وكل شيء وجد حولنا وبنا ولنا :

نحن الضعفاء أبدًا

المذلون أبدًا

الحقيرون أبدًا

ولا فخر.

نحن الأنطاع

اللمامة

الكلاب

ولا فخر.

❖ ❖ ❖

كاهن المرض

عجوز مهدم أقرع دميم متهاوٍ، باذخ العفن، يستند على عصا مقوسة التقطها من حطب الجحيم المحترق، فيما يمر في الزحام الحاد العنيف، لا يرحمه أحد ولا يهتم بأحد، بل يبتسم منتصرًا، وبصوت كهمس الأشباح المرعبة في حلم الأطفال، قال:

أنا أول الضعفاء.

من وسخي شربت،

وفي خرائي نمت.

وبغبائي سرت.

أنا أولكم ولا فخر.

أحب كل ضعيف وكل فقير وكل غبي بهلول عبيط وسخ وقذر.

بيوتي الخرابات وعشش الصفيح ودورات المياه.

أنفي خلقت لتشم العفن والنتن.

عيني لا ترى إلا دموعها،

وضباب الشتاء البارد الكئيب،

والوحدة والهجر والانكسار،

وأشباح الطريق المهزومة المبغوضة المتعبة،

كظلال القدر، تعبث بها الريح، وروح الفناء

والكسر البشري

وأنصاف الأنصاف

وأرباع الأرباع..

نزهاتي المستشفيات، أتنشق روائح المرض.

وهوايتي النوم في القبور ومضغ صبارها.

أنا المهمل الصامت برغبتي وحيدًا مقطوعًا وسط الأهل.

لا أعرف للإنسان حقوقًا أو واجبات.

لا أعرف الإنسان إلا نفاية ألقى بها يومًا طائر شريد،

ضائع في الفضاء المديد.

أنا أبوكم وليس هو.

أنا الضعيف الأضعف.

الخبيء.

النائي.

البعيد.

المقذوف صاروخًا منفلتًا في قلب الفناء والعماء

أنا أولكم.

ولا فخر.

❖ ❖ ❖

كاهن التفاهة

أصغر سنًا وعقلاً وأكثر مرضًا ورخامة ونطاعة، عاريًا تمامًا، على لحمه ملاط الطين الجاف المحروق، فكأنه رجل الصلصال، يتحرك آليًا ويتخبط في طريقه بين الأقدام قزمًا عييًا لئيمًا قال:

لا بل أنا

ولا إلا أنا

وليس حتى أنا.

فرّقتُ أناي من فرط احتقاري لها، فهجرتني وهجرتها.

وصرت ظلاً ينافس الظلال في تبعية السادة.

يأمرون فأطيع وأنبطح وأتمرغ تحت أقدامهم.

كلبًا من كلابهم، يلقون لي الطوق، فأقفز وألقفه بأسناني.

أشيد بهم في كل محفل.

أطبل وأغني وأرقص في أفراحهم.

وأبكي وأنوح في أحزانهم.

مرهون بهم، إن عاشوا عشت وإن ماتوا مت.

لا بغية لي إلا هم.

لا هدف إلا ما يرسمون.

عبد بالفطرة.

كلب بالسليقة.

ثعبان تحت الطلب.

أداة للاستخدام الفوري في السوق.

وجهي كل الوجوه.

فهو عدائي وسمح.

ذكي وأبله.

مرهب وخانع.

قناع أستبدله وفق المطلوب وتحت الضرورة الملحة واللاعبة.

خسيس وضحكي كهين ممرور.

خليطًا من أمراض الإنسان العصري التافه.

ومولع بكل تافه.

وفكك من الهري الثقافي والعمق والبطل الإشكالي.

ويا روح ما بعدك روح.

وأنا وابن عمي على الغريب.

وأنا والغريب على ابن عمي.

وأنا مش عارفني.

أنا تهت مني.

أنا مش أنا.

❖ ❖ ❖

كاهنة القذارة

تتلوى غنجًا سمجًا شبه عارية، لباسها مزقًا جلدها مكشوطًا ومحكوكًا ومجرحًا، عليه آثار ألف مليون ظفر ناهش وإصبع مهين غائر، وجهها بارد خامل لامبالٍ، قد من جلد تخين ميت، نظراتها الحقد الحاقد، كلبة متدلية المؤخرة، مسخ مشوه، غاضبة متكبره دون داعٍ، قالت:

فلتخرص كل الألسنة: حمراء وردية، تلعب في الفم ورضابه.

أو سوداء قذرة مرة الطعم لاعقة الفرج.

طويلة لعانة شتامة كانت أو قصيرة مكيرة حقيرة.

وليبعد أحقركم عني وإلا لوثته روحي القذرة الدنية.

أنا أم القذارة والخسة والدعارة.

أبيع لحمي في السوق.

أرتزق من ثديي.

أكل من لحمي وفي لحمي وبلحمي أعيش.

سلعة في السوق، سوق الحرمان والشهوة الدنية.

خرقة يمسح بها أنصاف الرجال وأرباع أرباعهم منيهم.

أنا الشرموطة كده وخلاص.

لا كرامة لي لا اختيار.

اللي يدفع يركب واللي معهوش مايلزمهوش.

مكاني نظيف شكلاً، قبيح مضموناً.

غني في الظاهر، فقير في الباطن.

طاهر في شكله، قذر في باطنه.

كل رجل بالنسبة لي ما هو إلا عضو،

طال أو قصر، رفيع أو تخين، قوي أو ضعيف.

وكل امرأة ما هي إلا فرج.

وكل الفروج فرج واحد في الظلام.

أنا كاهنة العري للعري.

عارفة الذكور ومجتمعهم الفاجر الفاحش.

عنوان مهانة المرأة.

بطاقة رسمية للضعة.

أنا المغوية الغاوية الغانية الغبية.

من لحمي البارد الميت الرمة يأكلون.

ومن رضابي السام يشربون.

وإلى عطوري الصناعية وزينتي الزيفية،

وشعري المستعار ووجهي المستعار وجسدي المستعار،

يحجون ويخضعون ويبكون ويتذللون.

أنا قاهرة الرجل ومذلة للرجولة الكريمة.

من يدخلني قذر.

من ينظرني أعمى.

أنا كفر الحب وضياعه.

أنا موت المشاعر الجميلة والحياء الأنيق.

لا أعرف كرامة (لا) وإنما هوان (نعم)

أنا السهلة المجبورة المشتراة والمباعة.

المهتوكة المدخولة الممزقة بالأظافر والأنياب.

من أكثر مني ضعفًا فيكم يا أرذال الناس،

فليتكلم الآن، أو يخرص إلى الأبد.

❖ ❖ ❖

كاهن النسونة

مائـع لا قوام لـه ولا هيئة، غطاه عار السـخام وأحرقه الغبار الناري، عارٍ لا يداري عريه، يزحف بين الأقدام ككلب مريض قال:

وأنا بلا فخر، عرص ديوث.

يلحس منيي الآخرين.

أنا السائر وراء النساء.

منسون.

ناسي نفسه ورجولته بإرادته.

ناعم نعومة البوم.

أملس لا شوكة في ظهري.

لا نخوة تصد ولا ترد.

مرتخي كعضو عنين.

مدلي اللسان.

أبله مضحوك عليه.

محتقر مزموم مهان.

أبجني تجدني مربوط في رجلك.

من يدوس عليَّ يدوس، فأنا مطية.

جالب الشهوة للشهوانيين.

كاتم الأسرار إلى حين.

منتهز الفرص.

لابس الخزوق دون أنين.

مسكين في وضع مكين.

كهين أعمى وأطرش.

لعين تافه ضاحك لكل سخف.

باسم لكل إهانة.

عنين،

لا رجل.

❖ ❖ ❖

كاهن الخبص

متفحم ملعون يفوح بالنتن، لا تعرف له كساءً من عري، ولا شـكلاً ولا مضمونًـا يقيء ومقيء رؤيته فـي حد ذاتها مصيبة، لا ترضاهـا لعـدوك حتـى، لا شـفقة تلوح في وجهـه ولا رحمة، بغيض. قال:

مـا هذا كله بشـيء، تلك مجرد أخطاء عادية وليسـت حتى ضعفًا.

أنتم تلاميذ في كي جي ون، يا مساكيني يا جرائي.

أما أنا يا عيني عليَّ وعلي حواليَّ، أستاذ في الحقارة العميقة.

أنا من يسـتمع لسـر أصحابه، من اليمين، فيفضحهم به من اليسار.

أنا من يوقع الناس ببعضها.

أبتهج وهم يمزقون بعضهم من وشايتي.

أنا الخباص الخبيث.

موقع النفوس في النفوس، والتيوس في التيوس.

الخبص فيض من لدني، مجانًا للّه في للّه كده هواية.

لا أحـب رؤية أحد سـعيدًا مبسـوطًا رائق البـال، وإن وجدته أذهب إليه في الحال مهمومًا جادًا مغمومًا وأعكنن عليه عيشته وأصور له مدى البؤس العائش فيه، هو الضحوك السعيد اللاهي، فزوجتـه تخونـه، أقـول له وأدلـل علـى خيانتها مع فـلان وعلان

وأنسج الحكاية تلو الحكاية وأنا كسيف وخجل من أجله، هو صاحبي القريب ولما يلومني لسوء ظني وتعجلي الحكم على الزوجة الحبيبة الوفية، أثبت له أنه طيب وعبيط بل إمعة واثق في شيطانه وأنه بلا شخصية قوية ومش حمش في بيته ولا غيطه ولا دكانه ولا نيلة.. وبلا قيمة، والمرأة تلاعبه وتهينه وتكسر ظهره وأنه دلدول ومسكين طفل تركبه زوجته، هكذا حتى يطلقها ويرتاح من السمعة الوحشة والتلاسن عليه في الرايحة والجاية ونهش عرضه وتضيع كرامته.

ولما أقضي على الزوجة الوفية الغبية، أستدير إلى ابنته الوحيدة الجميلة، أنحل وبرها، هامسًا له همس اللعين بالسر الدفين الغافل هو عنه:

أتعرف شيئًا عن ابنتك؟

إنها طاهرة هذا ما أعرفه عنها يا ناصحي الأمين.

إنها تخدعك كأمها واكفي القدرة على فمها تطلع البنت لأمها وذيل الكلب ما ينعدل ولو ربطت فيه قالب طوب أو حديد وحاذر من السهوكة، بنتك الخجولة اللي بتمشي منكمشة تتداري من العيون والألسن الطويلة، كما تقول، كاذبة عليك وعلى عينيك.

ماشية على حل شعرها ومرافقة طوب الأرض، يا أيها الأب الملتزم الوقور وأنت آخر من يعلم ولا تعلم أنك قدام الناس كلهم صغيرهم قبل كبرهم، عريان الطيز وبوشين عرص ومفضوح.

فيتركني إلى غرفته ويشنق نفسه دون تروٍ؛ التيس المتيوس المتعوس.

أنا حشرة الخيانة وعدم الثقة، فيروس مرضي يهد الحيل ويدمر الروح، كلماتي سكين ملساء ناعمة تجرح ولا تداوي، خباص خبيث، أذل أجعص جعيص، ناقل كلام إلى من لا شأن له به ولا مصلحة ولا لازمة، هوايتي فضح المخاليق للمتعة ولتحريك اللسان في الحلق، فأنا مبعرفش أمسك لساني الطويل.

❖ ❖ ❖

كاهن الرغي

يتقافـز فـي الرمـاد المحتـرق بين القطيـع وقد غطـاه العرق فجسـمه ضخم وكرشـه ضخم كأنه القربة وفمه ضخم كأنه الميكروفـون، لا يكف عن الكلام إن مع نفسـه أو الآخرين، كلام كلام كلام فـارغ ملهـوش لازمـة، راديـو خربـان زنان تفتحـه يتكلـم، تقفله يتكلم، تحطه يتكلم، تشـيله يتكلم، ترميه على آخر ذراعك وتسيبه وتمشي يتكلم، عدمان صدمان مالهوش حل مسخم ومغبر وعريان ملط قال:

أنا الفارغ، لا هواء يسـكنني حتى، لسـت إلا لسـان يتحرك عمال على بطال كأنه الشخشيخة في يد طفل غلس، يشخشخ بها طيلة الوقت ودون توقف، حتى وهو نائم، نوم العوافي؛ أنا رغاي مصدع للرؤوس، أسـخِّف كل حديـث أدخله، لا أترك لمحدثي الكلام، أقاطعه وأتكلم أنا الكلام المعروف؛ رطراط؛ كومة كلامي لا تنفد ولا تنقص بل تزيد، زبالة كلام، لا يسـتمع إليه أحد، ولا يفهمه أحد، ولا يحبه أحد، أمضي فيه ولو لم أجد أحد، وإن وجدته وهرب مني، مش مهم، فيه غيره كتير والسميعة على قفا مين يشـيل، وأنا مش بنقي، واللي ألاقيه يسد مكان أخيه، المهم أتكلم أرغي أدش، ميهمنيش مين بيسمع ومين بيتكلم، ولا الكلام رايح فين وجاي منين، المهم عندي الكلام للكلام والسلام.

أبدأ كلامي على طول من غير أحم ولا دستور أي حاجة طلطيش أحشر الكلمة جنب الكلمة وفوقها وتحتها؛ زحمة مالهاش شكل ولا مضمون أتكلم..

في الكورة:

ماشي، وداخل وعدا من واحد والتاني والتالت ويا سلام جول وجول وجول يا حبيب والديك يا عيني عليك والكورة إجوان وغدارة ودوارة وفست وحست وبست وباسها اللي حطها في الجون.

في الأفلام :

ما يضرش، ولا عيب إلا العيب والعار والكيف والسينما التجارية والأمريكية والهندية والريف الفضائي واللغة المحمية والإعلام الموجه والسينما النظيفة العفيفة الخفيفة ونسونها الشريفة وعشوائيتها المخيفة والرقص والبنص والهنص وهات إيدك وعلى ودنه .

في البورصة:

وماله نحكي ونتحاكى والسهم ده طالع وده نازل وده كسب وده خسر ويا عين ويا ليل وظلام الليل.

في السياسة:

دي عز الطلب، خد يا سيدي من ساسك للراسك
ومن ساس الناس كالوسواس الخناس

وسايسه سياسة لغاية ما تشيله الكناسة،

وسايس الخيول يبول على قارعة الطريق

والبطريق بيمشي كده هو، مفرشح ومفرطح زي الوزير الفلاني والحزبي العلاني وكلهم واكلينها وشربنها وفي المجلس محزمنها ومرقصنها وادخلوها آمنين.

في التاريخ:

بس كده يا سلام هو أنت جيت في جمل،

والجمل سفينة الصحراء وبالقافلة يمشي

ومصر كانت وكانت ودلوقتي هانت، وبانت

وإيه فرعنك يا فرعون

قال مالقتش حد يحوشني ويبطل يبوسني.

في الجغرافيا:

دي بالذات حبيتي ولعبتي جغرافيا المكان المرتبطة بالزمان

والجبال جبال والأنهار أنهار والهضاب هضاب.

وقشرة الأرض اتقشرت وانبرت

والأرض تسممت

وكل ما عليها تسمم.

في البخت والحظ :

حوش يا حواش واضرب الودع وارمي بياضك يا جدع.

وقيراط حظ ولا فدان شطارة.

ويا بختك يا أبو بخيت .

والاستعباط استظراف.

وتيجي مع الهبل دبل.

وامشي بخفة ودلع الدنيا هي الشابة وأنت الجدع.

وبمبي الحياة بقى لونها بمبي وبمبه كشر.

وسلامات يا سيدي مسحلات.

في الكلمات المتقاطعة:

حلاوتها في مكعباتها وخطوطها وحروفها المفرطة والمنقطة

ويا حرف يا ناقص نجيبك منين،

ويا كلمة يا غايبة يا غايمة يا ضايعة في القاموس المحيط أجيلك وأجيبك منين.

وأنتِ من حرفين

وحسن وحسين، اتنين.

مزقلطين ومش فاهمين.

في الحزن:

يا جماله والدموع بتغسل عيونه.

والوش مزنهر ومكهرب.

وصاحبه مليان بالهم.

وأنا والحزن أصحاب.

يودينـي وأوده.

والبكـا مين قده.

وعلى رأس الميت حطه.

والميت مات مات وفي ديله سبع لفات.

والحزن ما بقالهوش جلال يا جدع،

الحزن زي البرد زي الصداع.

في الفرح:

الفرح طرح، والفرح فرحنا

والشربات والمعازيم والهيصة والمهيصة.

واضحك كركر اوعى تفكر

وفيلم الفرح مش فرح،

وفرح اسم رجل وست ينفع للاتنين يعني،

والفرح فرحان على الطوالي وعجباني ابتسامتك عجباني.

في الفلسفة :

هي إنتاج المفاهيم الجديدة التي تواكب الحال

وهي رفع الأرض

والاقتطاع من الصيرورة

وتثبيت غير الثابت

والعايط في الفايت نقصان من العقل

والعقل الفردي الجزئي النسـبي بدأ مع ديكارت أبو الفلسفة الحديثة

وبيسه جنب بيسه تبقى هردبيسه

وديـكارت يلبس الجزمة بالبيسـة وشـيك وخجول ومنطوي وجبان بيخاف من الخفير والأمير ومرضيش ينشـر كتبه إلا بعد موته

والموت مشكلة فمن غيره ما تبقاش الحياة حياة

والموت منعكسًا على الحياة يقويها

ويحيها في الأبدية اللانهائية

واللا محدودية في المحدود دود دود

والدود حشرة لئيمة عبثية.

في الاقتصاد:

هو تبادل المنافع والتدافع بالمناكب في زحام السوق

وقرب قرب واللي ما يشتري يتفرج

والإنسان طاقة وآلة للرأسمالية السفاحة اللي بتخلي كل حاجة سلعة

وبيع يا وديع

وانفتاح السداح مداح

والاقتصاد التابع له توابع ممرضة على الاقتصاد الوطني

اللي هو غير ديناميكي كيكي كيكي
ما بيعتمدش على نفسه
وده مرتبط بالتقسيم الإنتاجي الرأسمالي العالمي
العولمي الكوكبي.

في الدين :

اديني ودنك
وودنك منين يا جحا ،
هو علاقة بين الإنسان والسماء
والسماء غير موجودة أصلاً لأنها مجرد غلاف جوي
والدين حلو
والدين حق
والدين خرافة
والدين غير عقلاني
وعقلاني
والدين المعاملة
وأرض اللّه واسعة
وكروية يعني أولها زي آخرها
وطولها زي عرضها
ويا منجي من المهالك يارب.

في الدنيا :

فانية وغانية

وحلوة وغنوة بس نفهمها

وكبيرة وصغيرة وطويلة وقصيرة

ودوارة ولفافة وتوديك البحر وترجعك عطشان

ومش مأمونة

وفي الآخر بتديك صابونة..

هكذا حتى يسقط المستمع مني قهرًا أو يفر هاربًا أو يلعنني وأمي وينزل فيَّ طحن وأنا ما زلت أتكلم :

استنى يا معلم لسة مخلصتش كلام

أنا جيلك في الكلام

يا عم ده كلام ابن حديت

ومعلهش إحنا بنتكلم

والكلام في الهوا

والكلام محرمش

والكلام ببلاش

وكلمة في حدوته

وكلمة تجيب كلمة على كلمة

وكل الكلام اتقال

والكلام غير اللغة

واللغة لغات

واللغات لفات ملفلفات..

كاهن الحقيقة

ينهال ضربًا على الرغاي ويطرحه أرضًا ويغرس فمه في الرماد الحارق الناري حتى يقتله ويقوم صارخًا غاضبًا طول بعرض، جرم رهيب بلطجي مستعد للعراك والقتال بسبب وبدون سبب قال :

نهاركم أزرق كلكم على بعضكم..
هل في أوسخ مني أنا..
من هو أوسخ مني فليتكلم أو يصمت إلى الأبد ،
أنا كاهن الحقيقة، مالك الحق الشرعي،
عالم وغيري جاهل،
كلامي أصلي،
أنا الصواب التام وغيري كذاب
أنا الحق والحقيقة وغيري الباطل
أنا من يتكلم وغيري يستمع ويستجيب وينفذ ما أقوله ،
أنا العارف كل شيء الفاهم كل شيء ،
أنا اللّٰه يمشي على الأرض وكلكم عبادي الأذلاء لي..
واللي ليه شوق في حاجة يقول ويخالف ،
أنا صاحب الحقيقة المطلقة ،
بتاع ربنا ووكيل عنه
وهبني المعرفة اللدنية

الحقيقة بتجيلي وحيًا وتقذف في فمي عمَّال على بطال
واللي مش مصدقني شيطانًا كافرًا ، عبثيًا لا أدريًا وأنا أدري
وقدري ومقدر وبقدر كويس الناس الكمل
اللي أنا أبوهم كلهم
ولا كلمة تانية بعدي

❖ ❖ ❖

كاهن السخرية

تعالت ضحكاته الساخرة وهو يمر منزلقًا من بين يدي صاحب الحقيقة، اللي جاي طالب الضعف والذلة والمسكنة، لأن الناس هناك مش مصدقاه ورمياه وطرداه وبتقول عليه إرهابي، مر الضاحك الساخر منه وكان عاريًا مسخمًا يفوح منه النتن وجسمة يشلب دمًا وشعره محترقًا وعيناه خارجة تكاد تسقط على أنفه المفلطحة البشعة، يتجمد مخاطها تحتها قال:

هاهاها أنا الساخر،

محسوبكم كده، مولود كده،

هعمل إيه واخدها ببساطة وألاطة

مابيهمنيش حد ولا محتد،

بسخر من طوب الأرض،

الكل عندي سواء، في السلطة أو غيرها،

أنا المتهكم على نفسه والكل،

أنا من يهدم كل عزيز وعزة ويشوه كل جميل وجمال ويخرب كل بيت آمن،

أنا الساخر المسخور به ومنه وفيه،

والسخرية هدم مضمر،

شكلها حلو وبيعجب الناس وبتظهر صاحبها بطل،

لكنه عايش على السخرية ونهش كل بناء وكفاح فحسب،

تهدم ولا تبني،

تخرَّب الحيل والعزم

وتميع القضية وتوحي ببطولة زائفة

والحكومة بتحبها وتسيب صاحبها يسخر في المسرحيات والأفلام والشارع،

علشان الناس تحس بأن الحكومة موضوعية وحرة وبتقبل النقد الساخر،

والساخر بياكل عيش بالسخرية

وآمن ومظبط حالة وواد بطل وواكلها والعة

وضاحك على الكل وعلى نفسه،

خسيس منافق دنيء،

لا يبذل أي مجهود للبناء والنقد الحقيقي الخلاق،

هدفه سهل: السخرية والتهكم على كل جليل جاد مكافح،

يميع كل ما ينظر إليه حقير،

فمن منكم أوسخ مني

يا كلابي يا جرائي يا خنازيري

زيري زيري

هاهاهاخخخا ..

نيههههاااا.

❖ ❖ ❖

كاهن المزاج

يخوض في الخراء، جروًا بين الجراء والدخان الحارق الممرض يخرجه من فمه دفعات، على شكل حلقات مستديرات لاعبات، يكح ويبربر ويقع ويقوم ويقول:

افسحوا الطريق يا ملاعين،
من يبزني في الخراب،
أنا شارب الخمور وكبير الحشاشين،
جامع أعقاب السجائر،
مدمر صحته وصحة أحبابه وأصدقائه،
أنا العائش في سحب الدخان دائمًا وأبدًا،
بتاع مزاجه، على الفاضي والمليان،
لا أمشي إلا وفي جيبي علبة السجائر
وشيشة صغيرة وزجاجة الخمر والحبوب المهلوسة والإبر
وكل سم يؤدي إلى الخراب والانتحار
والغياب والدوخة والنوم والقيء
وهههع أنا جدع وابن جودعان؛
لا أفيق من الدخان، ولما أفيق
فمن الدخان جئت وفي الدخان أعيش وأحترق وأذوب
وإلى الدخان أصير،
يا كبير القوم يا أنا،

يا أبو مزاج عالي،
يا شارب الجن يا جن والكينيا والبينيا والفودكا والبودكا
وضارب الحقن
يا ملعلع يا سارح في الفضاء مع الأغاني السوقية المهلبية،
يا مولع الليل بالليل وتاركها تضرب تولع،
ما أنت مولع ومدخن ومصهلل
ونضرب سوا الدخان ونسرح ونفكر في الهذيان
ونغيب في الليل البهيم
ونروح ماترح مانروح،
الدنيا تشيلنا وتودينا، في ليلينا وبلاوينا
ولا نعرف فين روحنا ولا جينا
والدخان خان صاحبه
وصاحبه ما خان.

❖ ❖ ❖

ونواصل في غبائنا وبغبائنا منحشرين في الإخدود الحارق، نسح بالعرق والدم والقيء يلفنا الدخان ويخرج من أنوفنا وحلوقنا ومؤخراتنا، كما تخرج الخوازيق وأسياخ الحديد ونبكي وننوح ونمر ونهر ونبر ونتطوح وننحدر من شق إلى آخر كأننا الفئران منحنون منكسرون مذلون مهانون لاعنون وملعونون، فيما الخدم الكارهون لنا والمكروهون منا يعزفون على رؤوسنا ألحان طبولهم المصدعة ومزاميرهم المسرسعة وغناءهم الكئيب.

ملعونين في كل أرض.

ملعونين.

وفي كل حدب وصوب.

ملعونين.

مهتوكين.

مهتوكين.

لا أمل فيكم.

لا أمل.

ولا منكم.

ولا منا.

ولا لكم.

ولا لنا.

يا مجحومين يا خريبين،

خريبين

يا أنطاع يا أنجاس،

أنجاس.

ياخونة يا غدارين.

غدارين.

يا زبالة الناس.

زبالة الناس.

يا خطأ لا يغتفر،

لا يغتفر.

ملعونة ولادتكم.

ملعونة.

وعيشتكم،

ملعونة.

وميتتكم.

ملعونة.

❖ ❖ ❖

أرض المتاهة

تهـاوت مقدمة قطيعنا في سـرداب عجيب موغل، كأنه قبر طويل قديم منسي مهجور موحش عفن كتيم، داخل أغوار الأرض، زجرنا فيه فتساقطنا متلعبكين في بعضنا، معجونين محترقين متفحمين مكتسـحين بعضنا البعـض، صارخين محطمين ومن يقوم منا يواصل المسير، كأنه مسلوب منوم، مسحوب من أنفه، لا يرى لا يسمع لا يتكلم وإنما يمشي إلى الأمام مسحورًا، يمشي للمشي ذاته، إن كان تحت الأرض أو في شق أو داخل حفرة من حفـر الجحيـم، أو في الهم والغم؛ المهـم أن يواصل الاقتراب من الكهين الأكهن البعيد، البغية الأخيرة، يرومها يلوذ بها، يتبعها غير آبه بغيرها.

قبر كريه مخيف مقطوع عن الدنيا والآخرة سماؤه من حجارة وعفـار وتراب وسـخام وأرضه لئيمة عنينه فقيرة جرداء موحشـة مظلمـة مملـوءة بالأشـباح والهياكل العظميـة المتصلبـة الميتة والمتحركـة الحية. أفـراد وجماعات من المرضى مرضًا عضالاً لا شفاء منه، موتى متحركين بأسمال بالية قديمة ممزقة خرقًا مترية بالغة الوسـخ، حتى الالتماع، جلودهـم متهدلة من بطونهم مـن الجوع والعطش والألم، هياكل عظمية تكسـوها الجلود، كأننا دخلنا أرض المجاعة ذاتها، رؤوس كبيرة وأجساد رفيعة صغيـرة قزمة، مطروحين أرضًا، يمصون أصابعهم كالأطفال، من الخوف والرعب وفوقهم تطير الوطاويط ماصة الدم صارخة،

والأرض تحتهـم شـاحبة، كـوجوههـم ومتعبـة وسـحب كهفية كـأنهـا خيمـة من نسـيج عنكبوت عفن، تكسـو كل شـيء؛ فكأننا نرى عالم الكابوس ذاته، خالصًا، يأسًـا تامًا وشـعورًا كريهًا، أقسـى من الموت وصمت مـن فرط حضوره، تكاد أن تلمسه أذنك لمس اليد.

لماذا هم هنا ولم يواصلوا مثلنا طريقهم وينهون الرحلة؟ لماذا يقبعـون فـي منتصف الطريق؟ لمـاذا اسـتكانوا وانطرحوا على وجوههـم وظهورهـم وجنوبهـم، ينتظـرون موتًا لا يريـد أن يأتي؟ كيف يعيشـون؟ وماذا يأكلـون؟ وما أهمية ما يفعلون بالضبط؟ إن لـكل كائـن هدفًـا من الحيـاة، فما هدفهـم بالضبط بغض النظر عن قيمته؟!!

آآه الخبثـاء إنهم سـادة الضعف المتمهل، إنهـم المتريثون، شـاربو الضعـف كله، حتى الثمالـة، فإذا ما وصلـوا إلى أبيهم عرضـوا أنفسـهم عليـه بلا نقـص، سـوى رؤيته فحسـب، إنهم المتفوقـون، مناظرهـم تجـاوزت حـد الرعـب وكل صنـوف الاشمئزاز، القادرون على الحبسة في القبر هذا وكل قبر آخر، داخل الصمت الصموت هذا، في جوف الجوف وانقطاع الانقطاع التام عن العالم كله، فكأنهم ليسـوا مهجورين فحسـب وإنما هم الهجر والنبذ مجسـدًا، في صورة أشـباح تتحرك دون حياة، وتهيم على وجوهها شاحبة ميتة.

مررنا بهم كأننا في حلم كابوسي، لا ندري لماذا بنى لنا هذا المعبد القاسي ومن بناه، ولماذا بناه، ما الحكمة منه، وهل بني أم كـان موجودًا من تلقاء نفسـه، دون يد تمسـه أو معول يجرف

أرضه توطئة لبناء أساسه، كأنه القدر المقدر، أو جزء أصيل من الأرض تكوَّن معها ممتزجًا بها، ويشكل معنى فيها، وينادي ناسه ليسكنوه، ويملؤوه حتى يتجلى معناه فيهم، وتنهض غايته بهم وتتحقق رسالته فيهم، ولماذا لا يوجد فيه إلا كل صنوف الخوف والفزع، ولماذا نقدسه أبًا عن جد، كأننا ولدنا له، ألا يكفينا عذابنا هناك فوق الأرض، وبين الناس؟!!

ولما نحس بهذا الاعتراض، هذا الشيء من الغضب المنعش الموقظ، سرعان ما تردنا إلى حالتنا الطبيعية الذلية، أسياخ الحديد تصرعنا، فنتذكر لماذا جئنا ولماذا ينبغى أن نتحمل كل هذا السخف، الذي سعينا إليه سعيًا والذي كان ينادينا نداءً ونسمع صوته، يلهب خيالنا ويقوينا وجوده البعيد، وكأن مهمة الحراس تذكيرنا إن نسينا وتقويمنا حال اعوجاجنا، وحثنا على السير إن توقفنا، وتجميعنا إن تفرقنا، وتوجيهنا في غربتنا وإيصالنا إليه سالمين مهيئين للرؤية الأخيرة والرهبة العظيمة.

واصلنا المسير، هانت كلها مرحلة واحدة ونرى الصغير المتصاغر، شامخ الذل، مهيب الركن، الملك الخالد أبد الدهر، يا للفرحة!! شُد عزمنا ومضينا نسرع ونلهج بالشكر لصاحب المعبد هذا القديم الأبدي، فلولاه ما كنا ولا نعمنا بلذة ضعفنا.. فهي لذة اللذات حقًا وصدقًا!! لماذا هي لذة اللذات؟

ربما لأنها بكر ومبعدة ومهجورة ومغضوب عليها يخشاها الكل وينفرون منها إلا من جربها، يا آآآه أحساسها بالغ ومبلغها صعب وهين في آن واحد، فأنت فيه مجرد ذرة في الكون الهائل، يطمرك ألف ألف مليون مليون نجم وكوكب وحجارة وتراب

ورمـل وأنت من تحـت الغمر الرهيب هذا تنظر وتبتسـم وتهمس: هـل مـن مزيد، لا لا ليـس الضعف فـي ذاته هو ما نروم ونسـعى ونكافح وإنما لذته، إحساسـه الكريـه، ظلامه، فإن تقبع في الخـوف ذاته، لا تواجهه وتصارعه وإنما تكونه، تجعله يأكلك ويميتـك غير آبه، تلك هي الشـجاعة بألف ولام التعريف، أما أن تلتذ بها ومنها، فذلك هو التفوق الخارق في ذاته؛ نحن كائنات تشبه البشر نعم، لكننا متفوقون بما لا يقاس وكأن لسان حالنا يقول للأقوياء هناك العزيزي النفس الكرام:

أنتم اخترتم الطريق السهل الميسور العادي، فالرفعة مطلوبة من الكل، أما الضعف فلا يطرقه إلا كل مميز بالغ القوة عظيم الشأن!! فها هو في الوهن ووسط الخراب يعيش، محتملاً الجوع، والجرائـم وسـجونها، وجدرانها، وقبورها، ها هو يخرج لسـانه لكم ويقول: من منكم يقدر على ما أقدر عليه؟ أنا روح الفناء، أنا الهباء واللا شيء والتفاهة المطلقة.

ونمر فوق أجساد وعظام إخوتنا المرضى، الهياكل العظمية التي أحبت حياة الموت وتلذذت بالعيش بجوار سـيدها المذلول، تشرب الذل قطرة قطرة، بصبر وتتعلم الزهد ونبذ غرائز الجسد والتحكـم فيهـا والعلو عليها بالـذل والمزيد من الإذلال ولسـان حالهم يقول: إذا كان مصيرنا الفناء فلماذا لا تكون حياتنا قبرًا؟ وإذا كانت الرغبة تأتي وتذهب وتزول كأنها ما كانت، فلماذا نسـكنها الجسـد ونملأه بها، بدلاً من أن نفرغـه منها، ويتحرر ويصير في سـكون تام وهدوء كامل؛ وإذا كانت الحياة تنتهي بالموت فلماذا لا نعيشها موتى.

إذا مـا نظرت إلى وجوههـم الخاوية من الحياة، المستسـلمة الجامدة اللا مبالية، لا يغمض لك جفن ولا تعرف نعيم الغفوة ولا راحة النوم ويرهبـك الصمت وتكتئب وربما تملأ عينيك الدموع إشفاقًا عليها، كأنما الشفقة لها طعام، والضعة شراب والمهانة خمـر معتقة، راضون بالقـدر المقدر، تراهـم متجمعين للبكاء والنحيب، يسـتمتعون بلـذة القهر وعذوبة النـدب، فتقهر روحك ويصيبـك الضعف والهوان والإذلال وتكره الحياة، بما فيها ومن فيها والأرض وما عليها من الشـجر والبشـر وما فوقها من سـماء وشـموس وأقمـار وسـحب، بـل والكون ولغـزه المحيـر الفاتن؛ وتحيط بقلبك كآبة الليل العميق والخوف من الأرواح والأشـباح التـي تأتـي من كهوفهـا المظلمة فتمس العيـون وترجف القلوب الضعيفـة، فتنهـار في لذة البكاء والنشـيج وتنـوح على ما ضاع منها من سعادة وتنوح على ما سيأتي لها من هوان وخوف وفزع من الحياة؛ إنهم خائفون من الماضي والحاضر والمسـتقبل، ناعمون في جحيم الخوف والضعف متفسـخون تمامًا، أيتام، مقطوعون من شجرة، منهارون، موتى، يزحفون على بطونهم، لا يجرؤ واحد على قول لا، أبدًا وإنما حاضر ونعم، بطريقة مذلة خافتة مترجية كهينة خبيثة داعرة.

كانوا في مرورنا يشيرون إلينا أن نمنحهم احتقارنا وبصقاتنا ويتذللـون لنضربهـم ونتحـرش بهـم لينعموا بالمزيـد من جرعات الـذل وليتماهوا بسـلطان الذل وتزداد عيونهم دمعًـا وقلوبهم رقة وأجسـادهم طربًا وينوحون منادين علـى أبيهم أبو الذل المذلول، قالوا:

لا تظنونا أكثر منكم منزلة في الضعف ونحن هنا محميون في قبرنا ، نعيش على الذكرى ، بينما أنتم تعيشون بالأعلى هناك بين البشر وتحت الشمس ، تنهلون من الضعف المتجدد بينما نحن في ضعفنا الساكت ساكتون لا نريم ولا نروم ، لا نرى جديدًا ولا نتجدد ، نراكم غبار الذكرى فوق بعضه ونحسوه ونهيله على رؤوسنا وهمًا في وهم وأنتم هناك تبطش بكم الأيدي والأرجل وتضربكم يد الأقدار العبثية ، أنتم تترقون في الضعف الغزير ، تعرفون صنوفًا جديدة عديدة متعددة من القهر والإذلال والضعف صنوفًا حديثة ومستحدثة ، هناك في العالم السريع ، هناك داخل السوق الكوني للمهانة وصنوفها اللا نهائية منها :

الذل الوقور

ترى ماذا جد فيه؟ ما الإضافات التي راكمها الزمن عليه؟ وكيف صار شكل الشخص المذلول الوقور المضروب على قفاه والمسحول على وجهه بين الخلق فيما هو باسم بالحكمة بل ويعظ الناس بمحاكاته في ذله ويبتسم لكل كريم نافر منه يبتسم شفقة عليه ، لأنه نزق متهور ، لا يعرف بعد الذل الوقور؛ فهل جد جديد في هذا ، احكوا لنا عن الذل الوقور العصري.

وماذا عن المهانة المحترمة

كيف حال أصحابها الآن؟ في مكاناتهم العالية بالمجتمع غير قادرين على الهبوط منها رعبًا من السمعة والقيل والقال ، فيسرقون ويكذبون بأناقة وكبرياء ويلعنون الكرامة صباح

مساء، فهي لا تؤكل خبزًا ولا تفتح بيتًا، أما المهانة المحترمة، فهي يا عيني عليها، الحل الناجز والبغية النهائية، وعض قلبي ولا تعض رغيفي وكلب حي ولا أسد ميت وهسس سسس الحيطان لها ودان وانكتم خالص، لا تودينا في داهية، هو أحنا قد البهوات اللي فوق، يفصلوننا ويحرموننا من المم، ومن الكرامة الزائفة بين الناس؛ وطع دائمًا واللي مايطاوعكش طاوعه أنت ومشي حالك، ولو أتخرب بيت أبوك خد منه قالب.

والخبث الكريم

كيف أخباره.. لقد بعد بنا الزمن ولم نقدر على تتبع تطوراته، كيف حال إخوتنا الخبثاء الكرام؟ هل أضافوا على أساليبهم الناعمة الحربائية جديدًا؟ هل تفوقوا في النفاق والتغرير بالبشر وإيقاع الناس في بعضها؟ آآآ ه لقد صدأت أرواحنا هنا، فنحن هنا مكشوفين لبعضنا ولا يستطيع واحد التخابث على أخيه، فلا مجال لذلك وكلنا زي بعضنا، لذلك نرصف في هدوء ممل ونريد تعلم الأساليب الجديدة هناك في المصنع الكبير، حيث الخبث الكريم يزدهر ويترعرع.

والكذب المتجلبب بالصراحة

هل حدثتمونا قليلاً عنه، إذ يبدو لنا بريئًا وساذجًا أمام المستحدثات من إعلام موجه ودين موجه وتعليم يحشد الملايين في أبنية، ليعلمها كيف يكون الكذب صراحة، والجهل علمًا والسطحية عمقًا والتفاهة وقارًا.

والجبن الشجاع

لطالما نعمنا به في الماضي، قبل أن يدفع بنا إلى هنا، في قبرنا لنعيشه ونتشربه حتى الثمالة، جبنًا شجاعًا؛ لا بد أن إضافات كثيرة حدثت لكهنته هناك، هؤلاء الجبناء العتاة في الجبن، لكنهم يبدون في ثوب الشجاعة فوارس منفوخة، تخيف الأطفال من البشر والحيوان.

هذا كله وغيره نحن محرومون منه، فأعطونا شيئًا نتزود به ونراكمه في ذاكرتنا القبرية هذه، نحن الصامتون حتى الموت وما بعد الموت، بإرادتنا الهشة نعيش ونموت قبل الموت، فكيف تضنون علينا ونحن كما ترون محرومون حتى من الرغبات الناهشة.

وكنا نضن عليهم بما يطلبون ونرجوهم العكس، طامعين في أن يقوموا هم بهذا الدور الرحيم، أن يذلونا هم ويشتمونا ويتحرشوا بنا، فهم في درجات ذل متفوقة علينا وما نحن سوى زوار، حديثي ذل وطالبي الذل كاملاً أو شيء منه، يعيننا على ذل حياتنا هناك بين البشر القساة الجبارين وهم توغلوا في الذل، فكادوا يقاربونه مقاربة الحبيب للحبيب العاشق بالمعشوق الصوفي بالمطلق؛ فكنا نهتف بهم ونهيب:

أعطونا شيئًا من احتقاركم الدنيء ومن نفوسكم الوضيعة ومن حقارتكم البالغة الموشكة على الكمال ومن سخفكم العظيم الهائل حفنات ولو قليلات.

وبدا الأمر بيننا كالمباراة بين فريقين محترفين، الفريق الزائر والآخر المقيم، كلٌّ منهما يريد إجبار الآخر على إذلاله،

ففريـق المقيمين يتقدم مهاجمًا راجيًـا المهانة كلها ، أو بعضها من الفريق الزائر ، الذي يبتعد حتى يتهيأ للهجوم والمطالبة بذات الطلـب الذلـي المهين ، فيبتعـد المقيم حتى تخبـو عزيمة الزائر المهاجـم وتتتابـه الخيبة واليأس فيوقف هجومـة ، فيبادر المقيم بالهجوم المضاد وتتعالى الأصوات الوهينة وتتخافت وتغلظ وتتحف وتمط وتقصـر وتهمس بالدموع والنظرات الآملة الملهوفة الرجاء واللائمة والمعاتبة والفم الكشر غضبًا والممتعض والباسم بوهن يائـس حزيـن خزيان ووجوه غلبانة مسـتحية تتنافـس في مضمار الضعـف والسـخف بحنكة ورهافـة اصقلتها الممارسـة والتعود وشحذها الإبداع وإرادته ، وقوَّاها الحب وعضدتها الروح المؤمنة بمـا تفعل؛ فإذا بجماعتينا كورس يعزف ذات القطعة بطريقتين متناغمتين تارة ومتنافرتين أخرى ، حتى يحسبنا الرائي إن وجد ، نحتفل راقصين مغنين للضعف والوهن ، بأثمالنا البالية وأجسادنا الباليـة المحطمـة القذرة الميتة الحية ، هيـاكل عظمية تراقص أجسادًا ضامرة ، كل منها في همس هامس ودموع ونجوى ورهافة سحرية داخل المقبرة الساكتة بعمق ومسقوفة بنسيج العنكبوت القديم الواهن الكثيف والظلام والعتمة تمور ، والفريقين تداخلا واسـتحالا فريقًـا واحدًا كبيـرًا مختلطًا لا يعرف فيـه الفرد مع مَـن هـو ، وضـد مَن ، والـرؤوس دائخـة والعيـون ذائغة والألسـن جافـة والأيادي ضارعة ، في بؤس بائس بالغ الكآبة والاكتئاب وتتناثر الرجاءات مع الكلمات والتذلل والتمسح والتظرف السمج والتنطع؛ فهذا يلمس ذاك بأنامل راعشة مرتعشة ويهمس من حلقٍ محترق لوعة ، ووجهه غارق في دموع البؤس الممزق لقلب الكافر الزنديق والمفتت للحجر الصوان:

من فضلك بصقة، بصقة واحدة، على وجهي، ألا يستحق وجه كهذا سمج حقير، بصقة منك؟! طيب، أنت تضن بالبصقة، إذن لتكن نظرة، نظرة واحدة محتقرة، تذكرني بحقارتي وهواني وضعفي المريع؛ ولو ضربتني، فكم سيكون هذا منك الكرم الكريم ولو دست على رقبتي وصعدت فوقي إلى المجد وحدك، سأكون عبدًا لك أبد الدهر؛ فبرجاء لا تخذلني..

ويبكي.

لا تهملني.

ويتأوه.

لا تحرمني من عطفك العطوف.

ويئن مريضًا خائرًا ينازع النزع الآخرين؛ فيما الآخر يقترب منه هامسًا بإصرار موقظ من النوم:

لا تقل هذا عن نفسك، فما أنا إلا حذاء في قدمك، ما أنا إلا شارب بولك ولاعق خراءك وكلبك التابع لك، دس عليَّ في طريقك واصعد واعلُ أنت ولا تهتم بمن تحتك، صب عليَّ كل جعبتك من الاحتقار فأنا حقير لا أستحق إلا بغضك.

فيرد الأول:

يستحيل عليَّ مس الكريم مثلك بأذى.

فيهمس الثاني:

لا بل أنت الكريم، تؤثر غيرك على نفسك الخلوقة الحية فيما نفسي خلقت ميتة لا روح فيه.

فيرد الأول مقاطعًا:

أبدًا أنا خطأ في التطور، كان ينبغي أن أولد كلبًا أو أرنبًا، فهذا ما استحقه.

فيقترب الثاني ويئن:

اقتلني طهر روحك مني.

فيرد الأول:

فقط بصقة، أو نظرة سامة، يتشربها قلبي الميت.

ويمسك بيد محدثة ويرفعها ليضرب بها نفسه، فيسارع الآخر إلى ذات الفعل.

ويتعانقان في شبه عراك خائر عجيب ويتقلبان على بعضهما في تراب المقبرة وسط الأجساد الضامرة العفنة مع غيرهم من المتقلبين على بعضهم والمتعاركين بوهن كأنهم نثار فانٍ تزروه الريح الهينة، داخل دروب العتمة في المقبرة المخيفة المرعبة.

كان سكان المقبرة ماهرين أكثر منَّا، إذ سلبونا أرواحنا، نحن القادمين من الخارج السياح محدثي ضعف، كانوا أكثر إلحاحًا وتعبيرًا وغيابًا في الظلمة وإلحافًا في النداء الموهن المبكي الحزين الضارع، فكأنهم ملعونون، تائهون في ضباب العدم المعتم وحيدون يرثى لهم، ملقون مشردون يتمرغون بأجسادهم المشوهة الميتة، كان ذلهم نافذًا ومؤثرًا إلى درجة أننا تقيئنا عليهم وضربناهم وشتمناهم؛ وفجأة أخذنا نهرول بعيدًا عنهم، إذ أفقنا وأدركنا خديعتهم لنا وأنهم تفوقوا علينا وسحرونا كلنا بذلهم، فنفرنا منه ومنهم ونسينا أننا ما جئنا إلا لنحسوا ترابة ونكلل رؤوسنا بخزيه؛ هربنا منهم باكين مستنجدين بابينا صاحب الذل المذلول الأكبر، يمن علينا بشيء من احتقاره ينقذنا

من نفوسـنا التي مسها شـيء من النفور أمام براعة الأذلاء المهرة هؤلاء.

كانـت المقبرة واسـعة مظلمة بل حالكـة الظلمة، لا نعرف لهـا وجهة، كأنهـا الضياع ذاته ولـولا بعض الحشـرات اللامعة الشـيطانية، التي كانت تقفز أمام مقدمة قطيعنا، ما اسـتطعنا التقـدم خطـوة إلى الأمام وكنـا نتدافع برعـب راغبين الخروج، كنا كشـخص أعمى يتلمس طريقه تحسسًـا وكنا نخشـى أن تكـون المقبرة متاهـة حقًا، طرقاتها تلف وتـدور وتعود، فنظل كذلـك إلى الأبـد ولا نخرج أبـدًا ولم يكن أمامنـا إلا الاعتماد على الخدم الحراس يقودننا، فهم عارفون بالطريق والحق أراحنا هـذا كثيرًا لكننا تنبهنا إلى سـيطرة الأمل علينا وأن هذا ليس من الضعف في شيء وأننا لا نريد حقًا ما نسعى إليه وهو الضعف الكامل، كل ما هناك أننا نلعب، أتينا للفسحة، سُيَّاح فحسب ولسنا جادين في مسعانا؛ إن قبول المتاهة والعيش فيها والتكيف معها والبقاء إلى الأبد، لهو الطريق الطبيعي، وهذه الرحلة تعليم وتقويـة وطريق للضعف ولا بـد أن نتعلم منها ونخوضها كلها ولا نترك فيها شيئًا ولا نكون غافلين وننسى هدفنا: الضعف والمزيد منه؛ لذا تباطأت خطوات القطيع، حتى كادت أن تتوقف لا سيما أن ساكني المقبرة يتبعوننا ويطلبون العون منا لنضعفهم أكثر.

وتعالـى صـوت هامس من بينهم، لهيـكل عظمي هرم كان صاحبه طاعن في السن، يستند على عصا معوجة، كان هشًا، كأنه ظل، راح يقترب منا ويقول ببطء ورهبة:

❖ ❖ ❖

كاهن المتاهة

ما الغاية من وجودكم هنا؟ أليس لتكونوا الضعفاء بحق في كل شيء، انظروا لنا وقد سبقناكم في الطريق ووصلنا حتى المقبرة هذه وتهنا في متاهتها، لم نتمسك بالوصول إلى أبينا، وفارقنا الحراس المرشدين لنا، فضلنا أن نكون بين الموت والحياة، نخشى الوصول، فالوصول في ذاته تحديد وقطع ونحن نخشى ما وراء الوصول.

لن نعود إلى الحياة ولن نواصل المضي إلى أبينا، سنبقى هنا تائهين، نحن هنا نتغذى على ما تنبته أرض المقبرة من حشائش ميتة، وحشرات تتكاثر في ظلمة العدم، عيوننا ألفت العماء حتى صرنا نرى جيدًا فيه.

ذات مرة في تجوالي بالمتاهة وجدت الطريق الموصل إلى أبينا، لم أتقدم فيه خطوة، أحببت المتاهة، وأردت ضعفها كله، وهو بلا نهاية مثلها، وكم هو ملذ أن تتوه، لا تعرف لك غاية، ولا هدفًا، فتتسلى بالتوهة، بين هذا وذاك وتسير ملطشة لهذا وذاك لا كرامة لك ولا قيمة ولا شعور ولا وجود إلا التافة الإمعة الدنيء؛ لكنني عرفت أن هذا قوة مني، وليس ضعفًا، فلقد اتخذت قرارًا وهذا تعبير عن إرادة وشخصية ومن ثم ليس ضعفًا.

فهل نحن بحاجة إلى الإرغام؟ هل نطالبكم بكسر إرادتنا؟ وأن تقودوننا عنوة إلى سيدنا هناك؟! ولكننا نعرف أن طلبنا هذا

مشوبًا برغبة في كسر إرادتنا ، ورغبة كسر الإرادة إرادة أكبر ، تعبر عن قوة أكبر ، ساوية فينا ، نخافها ، وهكذا نحن تائهون بين إرادات تتناهشنا ، ونرى أنفسنا نزداد قوة ، فنحن لسنا موتى كما تظنون ، لسنا أضعف منكم كما تتوهمون ، بل العكس تمامًا ؛ إن القدرة على التوقف وعدم إكمال المسير اعتراض على المسير وعلى الرحلة بل وعلى وجود أبينا هناك كأننا نضن عليه بوجودنا جواره ، ونعلن عدم رغبتنا فيه؛ انظروا ما نحن فيه وما وصلنا إليه فحتى لو أرغمتمونا على المسير معكم ودفعتونا دفعًا إلى ذلك ولم نقاومكم سنكون أقوياء بكم.

وخذوا هذه الكلمة الأخيرة أقولها لكم خالصة لوجه الشيطان إن كان موجودًا :

إن الضعف خرافة وأسطورة ولا يوجد إلا القوة ، بدرجات تنقص هنا وتزيد هناك حتى التخلص من القوة قوة؛ هكذا تلمسون أن المتاهة هنا في هذا الاستبصار الحقيقي ، حتى لو وصلتم إلى أبينا ، فهذا دليل قوة وليس ضعفًا وإلا فكيف احتملتم مشقة الرحلة المستحيلة هذه ، وحتى وجود أبينا هناك في منفاه الاختياري وهروبه من ضجيج الحياة وثمراتها الحلوة دليل قاطع على قوة لا نهاية لها ، فأين إذن الضعف؟! الضعف الكامل الشامل؛ فحتى الفناء والعدم ليس ضعفًا كاملاً وإنما قوة للنفي ، قوة نافية للوجود ، ضد الوجود ، نحن إذن محكومون بالقوة يا أبنائي ، فانظروا ماذا أنتم فاعلون والحال كما أوضحت وبوضوح لا تشوش فيه ولا توهة ولا حيرة.

كلما ذهبت في الضعف زادت قوتك، على تكرار الهبوط، ما يعني أنك تزداد قوة؛ نحن لا نفعل شيئًا إلا زيادة قوتنا، في صورة سلبية فحسب، نقوي الضعف، نوجده نخلقه، نضعه في صورة مثالية كاملة والكمال هو قمة القوة.

❖ ❖ ❖

أنهى الشبح الخبيث كلمته المحيرة المربكة وقفل راجعًا بهدوء وثقة تخلو من أي توهة وحيرة وشك، وغاب في الظلمة القبرية وتركنا صامتين متوقفين عن الحركة، فلأول مرة يتوقف القطيع كله ولا يعرف واحد فيه ماذا عليه أن يفعل وكل ما نقوم به من البداية كان تأكيدًا للقوة وليس الضعف، كأنما انقلب السحر على الساحر حقًا.

وصمت الخدم الحراس كذلك، وشملنا الموت الحق وصرنا متكفنين بالصمت حتى أنفاسنا الضنينة توقفت وتساقط أغلبنا أعياء لا يكلم واحد أخاه لا يضربه ولا يمسه حتى صرنا في وحدة مطلقة باردة خاوية؛ هل هذا الشبح الخبيث، لعب في رؤوسنا وأمسكنا من داخلنا وسلب منا إرادة التقدم في طريقنا إلى أبينا حقًا وأنه بذلك أشبه بالعنكبوت الصياد أوقع بنا في شبكته الواهنة الوهينة وأنقض علينا يمص دمنا.

كاهن الحيرة السفاح هذا، هضمنا ومزقنا كلنا فبتنا طوع أمره.

إذن لماذا يعيش والحال كما قال؟ فلتكن قوة بقوة وإذا كان القبوع قوة ومواصلة طريقنا قوة أساسهما الاختيار، فعلينا أن

نواصل طريقنا ونتخلص من السم الذي نفثه في نفوسنا وعقولنا ، نعم نحن نريد قوة الضعف؛ طيب لتكن حياتنا لعبة سخيفة؛ سنمضي بها وفيها ونواصل رحلتنا ، فلا بد أن نخرج من هذه المقبرة الصغيرة إلى المقبرة الكبيرة هناك فوق الأرض تحت الشمس، فهدفنا ليس إضعاف أنفسنا فحسب وإنما الآخرين أيضًا ، فنحن أصحاب رسالة كونية ، حتى يكون الضعف عامًا شاملاً كاسحًا وليس مجرد حالة فردية ونبقي كلنا ذي بعض مساواة مطلقة ، في الضعف وماحدش يتنطط على التاني أبدًا؛ ومن ثم نحن لا ننكر القوة وإنما نستخدمها لنحقق بها الحقيقة الكونية التي عرفناها بواسطة الضعف، القوة إذن وجدت لتعمل لصالح الضعف، لنكن أقوياء، قوة الضعف الخارقة إذن.

كانت عقولنا تعمل بحمية حتي كدنا نفقدها ، منا مَن نام ومَن غشي عليه ومَن سكن ومَن راح يضحك بسخرية مريرة ومَن وقف فجأة وواصل المسير يصحبه الخدم الحراس يبصقون عليه ويضربونه ويدقون الدفوف فوق رأسه وهو يرد عليهم بإصرار كأنه قطيع وحده، ثم تبعه واحد آخر مسحورًا بالتقليد والمحاكاة ووجود شخص يتبعه، زاحفًا على صدره، يريد الوصول إلى أبينا وفجأة نهض القطيع بكاملة استيقظت روحه ، وانتبه وواصل طريقه باكيًا ينوح ويسخر من أفراده، نادمًا ، تحفه وتسبح فوقه الحشرات المضيئة كأنها أرواح ضائعة ، تهيم على أرواح ضائعة أخرى داخل القبر الرهيب الصامت التائه في العتمة الأبدية ، وينهال عليه صراخ الحراس البغيض.

من الإمعات؟

نحن.

الجهلة؟

نحن.

السخفاء؟

نحن.

الذين لا حل لهم ولا حول ولا قوة ولا قيمة؟

نحن ومن غيرنا.

المرض يمشي على قدمين؟

نحن.

الأنطاع؟

نحن.

الحقيرين؟

نحن.

السفلة؟

نحن.

الساخرين.

نحن.

المسخور منهم؟

نحن.

التائهون في خراباتهم؟

نحن.

العميان؟

نحن ومن غيرنا.

لا أهلا بكم في بيتكم ومقبرتكم وعاركم وذلكم.

❖ ❖ ❖

أرض اللا مبالاة

كنـا منهكيـن الإنهاك عينـه، جوعى الجـوع ذاته ومرضى بمـا يفـوق كل مـرض وبـؤس وأذلاء أكثـر من أي وقـت آخر، أشباحًا حقيقية، خرجت في التو من المقبرة ومتاهتها الشيطانية وكائناتها الماسخة الممسوخة، هبطنا في جرفٍ وعرٍ موغلٍ إيغالاً سحيقًا قافزين على صخوره القديمة الكتيمة، جرف نبشته يد اليأس، كله حجارة مكسرة جرداء مشوهة؛ ولم نكن نظن غير ذلـك، فمن بـؤس نخرج وإلى بؤس ندخل ونغـور ونمور في حزننا العميق، نلهو ونتلهي به ضاحكين على أنفسـنا مثل من ألمت به مصيبـة لا طاقة له بها ولم يكن ينتظرها أو أعد العدة لها، فلما وقعت بكل ثقلها لم يجد غير الابتسام الكئيب الموهن؛ هبطنا غائصين في ظلام الجرف وعتمته يكاد النازل أن يهبط قلبه مع قدمه.

إلى أين تقودنا أيها الضعف؟ وكيف تسنّى لأبينا الوصول إلى هـذا الجـرف الغائر في باطن المجهول السـحيق هـذا، وما هذه الكـورة الأرضية الكبيـرة الضائعة في الفراغ الكوني ما بالها كبيرة وعميقة ومليئة بالشقوق، كأنها مثقبة مخرمة مفككة وملتمـة اتفاقًا وصدفة وقدرًا، وعبثًا في عبث، كأنها اسـفنجة تمتص كل ما يمسـها وتشـفطه فـي بطنها الرهيبـة، كم نحن ضعافـًا حقـًا نحن من ندعي القـوة، وغريبين حتى عن أنفسـنا، مـا هذا؟! ماذا فعلنا ونفعل بآنفسـنا؟ إلى ماذا نمضي هاربين من

السطح؟ آآه وما السطح إذن والباطن مخترق ومفتت هكذا؟ كيف تتماسك تلك الحجارة الهائلة المليئة بالشقوق والضعف والموت والصمت؟ أي قلب حجري صلد قاسٍ هذا، وكيف نبتت منه الحياة العاقلة الذكية الرقيقة؟!! ما هذا الكون العجيب وأشياؤه المظلمة الصامتة الملغزة.

نريد الوصول إلى أبينا أو الشيطان حتى؛ ذهقنا من تكرار السخف سأمنا حتى من رغبتنا في أن نكون الأضعف في العالم كله وكأن هذه رتبة ومكانة نحرص على الوصول إليها؛ أحيانًا نشعر بالندم والخجل مما نفعل ونرغب صدقًا في الصعود إلى سطح الأرض الطيبة الرحيمة، إلى رؤية السماء.

أحيانًا يحدث هذا ويكون بكاؤنا ليس أبدًا رغبة في تعميق ذلنا وإنما دهشة وخزيًا من سخفنا وتفكيرنا، لماذا لا نكون نظيفين ماذا فعلت النظافة والنزاهة لنا حتى نمجها هكذا ونحن لسنا مرضى، ما ذنب الصباحات المشرقة، حتي نعرض عنها وننظر إلى الليل القبوي، ماذا دهانا وألهانا وخيبنا هكذا ودفعنا لنخوض في كل هذا الوسخ والخراب وما الجدوى من رؤية شخص بعيد ناءٍ مختبئ في جوف الأرض لا يريد أصلاً رؤيتنا ولا يهتم بنا نحن أتباعه، ولا حتى بنفسه.

أحيانًا تشملنا هذه الأحاسيس والمشاعر الكريمة الناضجة العقلانية فتستقيم الظهور وتتطلع العيون ناظرة باشمئزاز إلى ما وصلنا إليه.

لكننا كالمقيد بحبل، نمضي في طريقنا مواصلين مكملين مشتاقين لرؤية العاتي الجبار هذا المدفون الدفين، لنلمس قدرته

علـى الوجود المسـتحيل الخارق في جوف النسـيان تفتننا صورة الضعف التي وصلنا إليها ، أكثر من الضعف نفسـه ، سـحريتها الجذابة الغامضة المسـتحيلة وإحساسـنا بالاختناق الذي يحسـه سيدنا القريب منا ، وهو في مكانه الضيق منحشرًا فيه بإرادته ، ونحن لا نعرف أية إرادة بلهاء هذه حقًا ، كأنه يفعل هذا من أجلنا ، يا للانحطاط الخارق الذي سقط فيه والعته المحض، من قال إن الحياة حلم يحلمه مجنون؛ كانت رغبتنا في سؤاله وهو الجاهل، والفهم منه وهو التافه، حارقة:

لماذا اختار هذا لنفسه؟ نعم هو حر ، إنشا للّه يروح في خرارة ، هو حر ، ما شأننا به ولكننا مسحورون به حقًا ، نريد التأكد من وجوده فعلاً وأنه ليس أسـطورة وحكاية تلوكها الألسن الفارغة الخرافية وإنما أسـطورة مجسدة حقيقية واقعية موجودة في هيئة إنسان مثلنا نراه ونلمسة ونحسه ونفهمه!!

وكأن الجرف يقود إلى حفرة العدم، لا معالم لها ، يصاعد من جوفها إلينا ضباب لا علاقة له بالشـتاء أو ببخار شـمس الصيف؛ ضباب ساكن، عبارة عن دخان عكر ، ليس كثيفًا ولا غليظًا ، نـرى منه لمحات من مشـاهد كابوسـية ، كأنها مـن لمح خيال مريـض، أو نظـرة جانبية مفاجئـة ، تلمح فجأة شـيئًا ضائعًا يمر بسـرعة هاربًـا ؛ نمر بأشـجار نابتة فـوق الصخور ، فـي هبوطنا ، كأننا نمر بحديقة مهدمة فوق بعضها ، ردمت ولم يبق فيها سوى أطلال خربة معوجة ملتوية ، أشياؤها القديمة الباقية منها متفرقة متناثرة هنا وهناك، تمر بنا حزينة صامتة ميتة مهملة.

وجدنا بشـرًا يسـكنون حول تلك الأشجار ، كأنهم عرائس

كسيت بالملابس وزينت بالشعر المستعار والأصباغ فبدوا كالبشر الحقيقيين فعلاً بل أجمل بما لا يقاس ولما اقتربنا أكثر، دبت الحياة في تلك الحديقة المسحورة وهفهف الشجر وطارت الطيور وتحرك البشر العرائس، كأنهم مربوطين بماكينة ضخمة خفية، تشغلهم عندما يمر بهم زائر ما، فشعرنا بالرعب الحق، مع ذلك راح البعض منا يمد يده ويلمس أجساد تلك العرائس، فيحس بليونة لحمها، فأدركنا أنها ليست من الخشب وإنما من اللحم والدم تشبه البشر، بشر بيلوجيين إن جاز القول، من لحم ميت ودم بارد وأحاسيس فاترة ومشاعر معلبة جاهزة مكررة ولغة يومية مبتذلة وكل ما يميز البشر العاديين الشائعين؛ أخبرونا أنهم بلا روح أو شخصية، بلا تميز بلا قرار ورأي وتفكير مستقل يوجدون كما يوجدون لا يغضبون وإن غضبوا فغضبهم مثل فرحهم موجه من غيرهم، يقلدون الحياة العادية للبشر تمامًا يزرعون ويحصدون ويعملون فيما يشبه الورش الصغيرة فوق الصخور، التي يكتنفها الضباب، ومحلات مليئة بالبضائع كأننا نرى مدينة مهدمة بالكامل، كانت هنا وإصابها زلزال ملعون فغارت في الأرض وتحطم كل شيء فيها، فيما عدا بقايا شائهة، ملقاة هنا وهناك فوق الصخور الهابطة في الحفرة العميقة، التي نهبط فيها ملعونين من الحراس وأنفسنا؛ كنا نكلمهم ويكلمونا في مرورنا بهم، لكن كما تكلم أطفالاً آليين، فثمة من تبتسم لك بأدب بحركات بالغة الود والأناقة والرشاقة والجمال حتى تستبشر خيرًا وتمضي سعيدًا رغم إحساسك القوي بأن هذا غير مناسب ولا معقول في جرف كهذا

لا يحوي سوى الموتي، كأنما الحياة على الأرض غمرها طوفان كاسح ساحق ماحق، ففروا منه في هذا الجرف متوغلين بأعماق الأرض حاملين معهم الحضارة وفنون الإتيكيت ويتمسكون بها ويحيون كأنهم بالأعلى داخل قصورهم المنيفة، لكنك ما أن تلتفت حتى تجد الفتاة تكرر نفس الحركات مع غيرك، بنفس النشاط، والدقة والأحكام، كأنها مبرمجة ولا تفعل هذا بإرادتها واختيارها كتعبير عن شخصية جاهدت في بنائها عبر التجارب والاختيار، فتشعر بتمييع نفسك ووجع في بطنك، فالرقي المعلب المعد الجاهز هذا الشبيه بخدمة توصيل الطلبات السريعة تلك، تميع الروح، وكان هذا مناسبًا لنا على أي حال على الأقل نحن بحاجة إلى تلك البرودة والآلية واللا مبالاة حتى لا نتساقط موتى محترقين قهرًا قبل أن نصل للمعتوه أبينا.

كل شيء بدا منضبطًا وسط الفوضى هذه، كأنهم لا يلحظون الخراب المحيط بهم ولا شاعرين بوجودهم داخل حفرة بباطن الأرض، أو هكذا أرادوا الإيحاء لنا فأحسسنا بإحساس مقيء فاتر طعمة حامض بلاستيكي لا تحترم ما تراه ولا تستطيع أن تقدره، فما قيمة الحضارة كمنظر خارجي دون روح وإرادة حقة لبشر حقيقيين حتى ولو كانوا ضعافًا مثلنا؟ هنا سقط في إيدينا جميعًا وانهار جمعنا، فما وجدناه تجاوز كل حدود الضعف، كأنما انقطع خيطه من أيدينا، وانفرط المعنى وذابت الإرادة، فلا بشر هنا إلا الشبيهين الإمعات والعرائس المتحكم بها، كائنات بيلوجية في أحسن تقدير أجساد هي ركام من اللحم الجميل المرتب والمنظم عملت فيه يد المزين فأخرجته كما

أرادت له.

كان الضباب حاضرًا بقوة عيية، ينفث في نفوسنا أحساس العدم الحق واللا جدوي فكنا نقفز على الصخور محتمين بأنفسنا، نخترق حديقة ما بعد الموت والرعب، المرعب تلك؛ شاعرين أن لقذارتنا ميزة ولذلنا كرامة ولضعفنا معنى، حتى ولو كان حقيرًا، فعلى الأقل لدينا إرادة واختيار وأننا بشر ما زلنا وننتمي لكرامة الناس، يااه الكرامة العزيزة؛

هنا هزمنا حقًا وأدركنا مآلات رحلتنا والغاية السخيفة منها فهل هذا اختبار؟ هل ثمة من يقول لنا إن ما نراه هنا نموذج لما سنكون عليه هناك بين الناس؛ لما نذهب إليهم؟ مجرد كومة من لحم ودم بيلوجي يتحكم بها الآخرون ويوجهونها وفق إرادتهم، طالما نحن اتخذنا من الضعف طريقًا ومذهبًا؟ أهذا هو المرجو من رحلتنا؟ أهذا تقدمًا ونجاحًا في مضمار الذل حقًا؟ لم نكن نظن أننا سنجد أكثر من الذل الذي عرفناه، لكننا وجدناه ورأيناه ولمسناه، إنه الذل اللانهائي، الذل الأعظم.

ألم نكن نضرب بالمقارع ونشتم ونسحق تحت الأقدام وتشد شعورنا ونسحب ويتحرش بنا الخ؛ من أجل هذا وأن هذا يجب أن يكون عاديًا وطبيعيًا بل ومحببًا لنا.

أيًا ما كان الأمر لنرجئ الحكم ونواصل على الأقل لنعرف ولعلنا نعرف مقدار تلك الوجبة الدسمة المكثفة والتي ينبغي أن نحبها ونريدها فهي العون لنا، نعم سنعرف مقدارها لما نرجع، سنكون أكثر قوة وتحمل لمذلينا ونواصل العيش بلا أدني كرامة ولا حس ولا خبر فننجوا، ننجو من ماذا؟!

ننجو من مسؤولية وجودنا من حريتنا وكرامتنا واستقلالنا، فهذه القيم السامية تجعلنا نحارب الأقوياء الذين يريدوننا أذلاء لهم ونموت دفاعًا عنها ولا نحب الحياة إلا الكريمة الأبية الشامخة، فنتعرض للسجن والفضيحة من السلطة التي لا تريد إلاها كريمًا وعظيمًا وأبديًا، لهذا نشعر بأننا الأذكياء الأكثر عددًا وعمرًا نعيش أكثر ننجب أكثر ونملأ الأرض بنسلنا المذل المهان في كل آن ومكان وترضى عنا السلطة كما يرضى صاحب الكلب عن كلبه الوفي، يرمي له الطوق فيهرع لإحضاره له مرة أخرى ويقبع منتظرًا الإشارة ليلبي الطلب فورًا، مدلي اللسان هازًا الذيل نشيطًا سعيدًا بالخدمة الكلبية والتمرغ تحت أقدام أسياده الكرام الأعزاء.

وفيما نحن نمر بهم قافزين على الصخور وهابطين إلى الأعماق المرعبة صامتين مندهشين، كانوا يقتربون منًّا دون تأفف بل بحب وضراعة ورغبة مصطنعة وظيفية يعرضون علينا نساءهم ببلاش وأبناءهم ببلاش وأنفسهم ببلاش، هم الخدم الطبيعيون والأذلاء بالإرادة ماسحو الجوخ لله في لله، المعرصون بمزاجهم، مدعمو الحقارة لذات الحقارة، النصابون هواية ومزاج، هم التشوه الإنساني وانحطاطه وسفالته.

كانوا حقًا من أكثر ما وجدنا على وجه البسيطة الصابرة على الحيوان البشري لحين تنظف نفسها من مرضه العضال، بطوفان كريم يكسحه كسحًا نهائيًا من على أديمها المقشعر المرتجف من دوس هؤلاء عليه كل طلعة شمس بريئة آملة في الكائن البشري الذي تخلصت منه القرود وألقت به بعيدًا عن

غابتها لتتعم بالرقي الحيواني الأصيل والهدوء والكرامة الحقة.

كان هؤلاء البشر الناعمو الوجوه الماسخو الطعم حتى القيء، مرعبين لنا حتى انهرنا انهيارًا، فلا يمكننا أبدًا أن نصل إلى هذا المستوى الحقير الموغل في الحقارة تلك الطينة لا حل لها، أما أن تستأصل أو تبعد ويغرق أصحابها في المحيط.

أخذنا نهذي لم نشعر بالضرب الذي ما فتئ يكيله لنا الخدم ولا حتى بالهوان وإنما ويا للغرابة شعرنا بالكرامة، رجفة الكرامة نعم الكثير منَّا بكوا، ليس ذلاً وإنما تحررًا من الذل، يا اللّه جئنا لنشرب من ماء الانحطاط وتحملنا كل صوره وأشكاله أما الآن فنحن أمام معضلة، هي حياة أو موت وجود أو لا وجود، شيء رهيب، خذلنا شيطاننا غرر بنا غرورنا، كنا نظن أننا سنتحد مع الذل الأعظم، فوجدنا ما يفوقه، يا للّه كيف يكون حال المذلول الأعظم، ما هو مستواه العالي في الانحطاط، ما حال كبيرنا حقًا وهؤلاء مجرد أبنائه يعيشون بعيدًا عنه في مستوى أدنى؛ نقسم أن منَّا من صعبت عليه نفسه وانهار باكيًا عليها وعلى جنس البشر؛ نقسم أن الكثير منَّا انهار خزيًا أمام هذه الثعابين الملساء بائعة كل كل شيء مجانًا لهدف البيع، لذات البيع، هم البيع نفسه بشحمه ولحمة والغريب، لا، ليس غريبًا أن أبناءهم وزوجاتهم كانوا مثلهم على الطريق مجاهدين مقدمين أنفسهم لمن يريد دون حساب أو عقاب كأنهم بضائع، سادرين في الشيئية والمجانية الكاملة، فإن ركبت أحدهن من الأمام أو الخلف، في حضور أبيها، ساعدك وساعدتك وأعطاك وأعطتك المزيد، ضربتها بحجر حتى سقط من يدك المجهدة

بعيدًا قامت وأحضرته لك، فهي شاكرة على كل حال ومآل، موافقة على أي شيء، خرقة من الخرق، شيء من الأشياء، ضعها هناك، ستجدها لما تعود، مستسلمة تمامًا تمامًا.

كانوا عائلات كاملة لا يهمهم إلا العطاء الفاجر، كائنات العطاء الفاجر، هم أدوات للاستخدام الجنسي وغير الجنسي يقتلون يكذبون يمثلون على أي مسرح، النص المطلوب منهم، جاهزون لأي حال، هم كل شيء ولا شيء باسمين ضاحكين لا مبالين جوهريًا هم للكل وليس لأحد.

أمر أرهبنا فهذا يتعدى الذل كما نعرفه، فالذل أيًا ما كان مرحلة من المراحل يمكن جدًا وإن كان بصعوبة الرجوع عنها والإفاقة منها، أما هؤلاء اللا مبالون مطلقًا وبالجبلة. هم قفزة خارج كل تصنيف، فلماذا أتوا هنا؟ وما الحكمة، هل يريدون من ينضم إليهم نعم، كانوا يريدون زيادة نسلهم، أخبرونا بأن عددهم في زيادة مطردة وأنهم يأتون هنا كل سنة بطعامهم وشرابهم وأموالهم ويقيم البعض منهم طيلة السنة ينتظروننا لأننا الأقرب إليهم؛ فاضل لينا تكة وتتحول البشرية كلها إلى مسوخ مشوهة بالكامل حشود حاشدة في الخدمة المجانية وتنهار البشرية رأسًا على عقب حتى تصير أقل بمراحل من الحيوان، ثم يهبطون أكثر إلى ما دون الحشرات وأنهم ليجاهدون للوصول إلى هذه المرحلة العظيمة المقدسة فشخ، قالوا:

ما زلتم تبحثون عن لذة الضعف ونحن تجاوزناها وأبطلنا مفعولها ونعيش على لحمنا وعظامنا فحسب، وعدنا إلى الطبيعة الغفل، فإذا كان شرط الضعف هو معرفته الدائمة ومعاناته

الدائمـة ، فلا يمكن تجـاوزه إذن والحرص على عدم تجاوزه قوة نحن قطعنا الخيط وقفزنا إلى اللا مبالاة الحقة الكاملة ، انضموا إلينا ، فهنا المنتهى والغاية زيدونا عددًا ، كثِّرونا وأنعموا بالشيئية الخالصة ، والتخلص من الإنسـان تمامًا ، فقط أبقوا على شكله الخارجي فحسـب ، أنتم جثث ، آلات من لحم ، كائنات بيلوجية فحسب.

هربنـا ، ركضًا وبصعوبة على الحجارة قافزين منهارين على بعضنـا وكانت أجسـادهم النظيفـة ورائحتهم الحلـوة وطعامهم وشـرابهم مغويًـا بشـدة لأغلبنـا فانهـار الكثيرون مـن الجوعى والظمـأى منـا وانضمـوا إليهم ، يأكلـون ويشـربون ويضاجعون أجسادًا لا روح لها أو فيها ، شوية لحم بارد داعر لذته أقل كثيرًا من الاستمناء.

❖ ❖ ❖

أبو الضعف

وصلنا آخر الهاوية البركانية السحيقة العمق، القلب، مركز الضعف الكامل، مكان لا يمكن أن يصل إليه كائن حي أو ميت، أحسسنا بقلب الأرض وكأننا فيه بالفعل مقطوعين عن العالم كله تمامًا لا رائحة إلا رائحة الصمت والحجر والعزلة والتراب والهجر والموت والضياع أحساس بالاندفان التام، ثمة رطوبة أحسسنا بها كان عددنا جد قليل لا نعرف ولا نهتم بمصير الكثرة الكاثرة التي كانت تشاركنا الرحلة فلا أحد مسؤول عن أحد أو يهتم بأحد.

دخلنا فرادى واحدًا واحدًا، زاحفين على بطوننا في ممر واطئ ضيق، أوصلنا إلى مدفن مصمت، لا مخرج له، فلم يعرف واحد منَّا ماذا يفعل، لولا أننا وجدنا الكاهن الحارس يقبع في زاوية المدفن الصامت الهامد، الذي يمكنك فيه أن تسمع صوت دقات قلبك، فأخذنا ننظر إليه، ونحن ملتصقين ببعضنا مالئين المدفن وسادين الممر الذي يأتي منه الآخرون، وقد اختلط الأمر علينا فظنناه أبينا، لا سيما وأن المدفن مصمت تمامًا ولا يوجد فيه أحد سواه حتى ولو عظام جثة، ولكنه أشار إلينا بالهدوء التام، ففهمنا وانهرنا جالسين في أماكننا متكومين فوق بعضنا كالنفاية، منتظرين توجيهاته لنرى أبينا، إن كان يمكنه أن يكون موجودًا هنا حقًا على نحو ما، تراجع الكاهن قليلاً، فظهر ثقب في الجدار خلفه وكان الجدار عبارة عن حجر كبير بحجم حائط

المدفن، أمرنا الكاهن أن ندخل الثقب العجيب واحدًا فواحد، لنصل منه إلى فتحة أخرى نعود منها إلى حيث أتينا؛ فسألناه: وأين أبينا.

قال: ستلمحونه أثناء زحفكم.

كان الممر أو الشق الصخري، الذي سنلمح فيه أبينا ونحن نمر فيه، منحوتًا في الحجر ببطء وصبر سنوات طويلة، لا يسع شخصين ولا شخصًا واحدًا حتى ولو كان رفيعًا هزيلاً، ولا بد للداخل الزاحف أن ينحشر انحشارًا، كأنه يمر من ثقب الأبرة.

كان المدفن الواقفون فيه عبارة عن صخرة هرمة محفورة ومفرغة بأزميل بارد قديم صبور له فتحتين، دخلنا من الأولى إليه وسنخرج من الثانية، التي أفسح لنا الكاهن الطريق إليها، وهو يخبرنا أننا وفيما نمر فرادى زحفًا على صدورنا، سنجد مخدع أبينا العظيم الهول والضعف وأننا لا ينبغي أن نفعل شيئًا سوى إلقاء نظرة واحدة سريعة صامتة إليه فحسب، نروي بها عطشنا، ولم نتصور كيف يمكن لكائن الإقامة والحياة داخل حفرة بالغة الضيق كهذه، في مدفن بأعماق الأرض.

كان أغلبنا إن لم نكن كلنا زاهدين، أو بالأحرى خائفين ومرعوبين، من دخول ذلك الشق الأخير الضيق، لرؤية سيدنا، فكيف بالشيطان يحتمل الدفن حيًا هكذا؟! كيف واتته كل هذه القدرة؟! وربما الأعجب من هذا، الكاهن الكهل الهرم نفسه، المتفاني في خدمة سيده، يقبع طيلة عمرة بالمدفن لا يغادره أبدًا، بجوار الثقب الصخري المؤدي إلى الضعيف الكامل.

مررنا على سيدنا وملاذنا فرادى زحفًا على بطوننا وصدورنا ووجوهنا وكان خوفنا بلا حدود، وحسبنا أن هذا هو الوضع الطبيعي للذل، الصورة العادية له، فنحن هكذا نعيش بين الناس، هكذا اخترنا التواجد بين الأقدام وتحتها، هكذا كنا، وليس غريبًا علينا الانبطاح، فنحن لا نضجر منه أبدًا، ولكن المدهش لنا، بل والمرعب حقًا، أن ما رأيناه سابقًا لا قيمة له، أمام أبو الذل المذلول، القمة الشامخة في الذل والانبطاح والدمار الإنساني العام الشامل، شيء متفوق بجنون بسفه برعب خالص مخلص، حاجة أسطورية.

زحفنا واحدًا فآخر وكان علينا المرور بسرعة حتى لا تؤذي أنفاسنا أبينا، فضلاً عن أننا نسد الهواء الضنين القادم إليه، فيما كان الكاهن الأخير الهرم الموحش الموهن المرعب، يحكي لنا شيئًا عن أبينا وغايتنا وكان الخارج من نهاية الثقب العجيب.

يبدو متعرقًا بفظاعة، وأكثر بؤسًا مما دخل ومرعوبًا أكثر رعبًا مما دخل، بل كان البعض منا مذهولاً، ضاحكًا مجنونًا ضاربًا كفًا بأخرى، يرتجف بتشنج، ويجري هاربًا، يتخبط في الآخرين، يزيحهم بجنون، كأن يدًا شريرة وحشية تريد القبض على قفاه لتسحقه سحقًا، عائدًا من نفس طريق الإياب، قاطعًا نفس الطرق الوعرة الغبية، صاعدًا هذه المرة الجرف البركاني مجددًا، إلى الأرض الكريمة العزيزة، وهو يشد شعره ويمزق وجهه، سخرية وذهولاً مما رأى، فيما الكاهن يواصل إرشاداته ويحكي شيئًا عن أبينا لنا، بصوته البطيء الوهين كأن أبانا يكلمنا من خلاله، والكاهن مجرد ميكرفون، وهذا كان

أكبـر دليل لنا على مدى التماهي والاتحاد الصوفي الحادث بين الكاهن وأبينا.

قال الضعف:

وأنت تمر بي لا تحسب أنك سترى معجزة، فلا توجد معجزات فـي هذا الزمن ولا قبلـه، المعجزات: مجازات لغوية لا غير، إنها نوع من المبالغة، تلبي حاجة لدى المؤمن بها، نسميها حاجة إلى المعجـزة، حاجة إلى الوجود غير العادي، حاجة إلى الوجود غير المألوف.

ومـع ذلك فالمعجزة موجـودة بذاتها، دون الحاجة الإنسـانية إليهـا، تلك الحاجة التي هي تعبير عـن رفض العادي والمألوف، ذلك العادي والمألوف الذي صنعة الإنسـان، ليهرب من المعجزة أساسًـا، والمعجزة بذاتها هي ببسـاطة: هذا الكون الذي نعيش فيه؛ إنه المعجزة بألف ولام التعريف؛ فهو يعجز الإنسان عن فهمه؛ أي أنه مستحيل على الإنسان، وخارق؛ ما يعني أن الإنسان يعيش في المعجز والمسـتحيل والخارق ومع ذلك يعتبره عاديًا ومألوفًا؛ ما يعني أيضًا أن فكرة العادي والمألوف حيلة يحتال بها الإنسان ليستطيع الحياة في هذا المعجز والخارق المحيط به والذي نسمية الكون.

وكما ترى الأمر أشـبه بالدائرة، فالإنسـان يعيش في كون معجز وخارق، فيجهد في تحويله إلى كون مألوف وعادي، ثم يمل من المألوف والعادي الذي صنعهما، فتنشـأ الحاجة إلى المعجز والخارق، اللذين هرب منهما أصلاً.. وهكذا تدور اللعبة.

ما ستراه إذن أمرًا عاديًا وطبيعيًا جدًا لا زيادة فيه ولا نقص، لا تندهش فما أن ترى حالي ستشفق عليَّ وهذا طبيعي فحالي كحالك لا يسر، والحق أقول لك لا يوجد ما يسر في الحياة والفرح لا يعدو كونه نوعًا من مرض أو قل صحة، مشوبة بمرض، لا تهم التسميات كثيرًا، رغم أن البشر مولعون بها وأنا نفسي لا أستطيع الاستغناء عنها بوصفي أحدث أصواتًا تسمى لغة تنتج صورًا وكلمات مجردة تشير إلى معنى اتفاقي بيننا؛ الفرح والحزن إذن تشنجات وانفعلات غير عقلانية ككل شيء في حياتنا، فما نسميه عقل هو مجرد العادة إلى شيء يتكرر بك وبغيرك ودمتم؛ وهي تشنجات مصحوبة بأصوات عالية مزعجة ليست رقصًا طبعًا وإن كانت لا تخلو منه.

انفض عن نفسك الأوهام وأنت تمر بي، فأنا كائن عادي تصادف أن يوجد بين البشر في الكون هذا، عشت حياة عادية جدًا لا شيء فيها مميز، ولا يلفت النظر، شكلي شكل الناس ولبسي ولغتي ورغباتي وأحلامي، كل شيء عادي تمامًا لا يستحق الذكر فهوِّن عليك، كل ما في الأمر أنك أتيت إليَّ عبر رحلة صاخبة من السخف العادي جدًا المألوف جدًا وأنت تحسبها خارقة وغريبة وهي ليست كذلك أنت فقط مجهد ومشوش وتريد أن تؤكد لنفسك أنك سترى عجبًا كمكافأة على رحلتك تلك.

والأجدى أن تعتبرها رحلة لاكتشاف الذات، ذاتك أنت، قبل اكتشاف الحقيقة الخارجية حقيقتي، فأيًا ما كانت الصورة التي سأبدو لك بها فهي اختياري أنا، مصيري أنا؛ التحقق الذاتي لي، مهما خالف توقعاتك أو انسجم معها، وعلى أية حال سألبي

لك رغبة فضولك لرؤيتي فأنا أيضًا أريد أن أراك يا مريدي، رغم حبي للعزلة واستغنائي بها عن كل شيء.

طبعًا ستقول إنه لا يوجد إنسان عادي يترك سطح الأرض المنير الكريم المسقوف ببحر السماء الرائق الأزرق، تسبح فيه جوهرة الشمس نهارًا والقمر والنجوم والشهب ليلاً ويغوص في أعماق هاوية ويستقر في شق حجر داخل مدفن كهذا، ولا بد أن من يفعل هذا، شخص غير عادي ومميز حتى ولو تميز بالضعف، إن كان يمكن أن يكون الضعف ميزة! أقول لك إنك مخطئ؛ فأي ميزة في الاختباء يا ترى؟!

كل ما في الأمر أنني صدقت أن الوجود هو الضعف؛ من جهة حقيقته؛ فكل شيء فيه زائل والقوة من ثم نزق صبياني والجمال رعونة ومظاهر خادعة وبقية القيم السامية، مجرد وسائلاً، تستخدم بفعل العادة، ليمشي الحال بعبثه وتلفيقه المعتاد وأيضًا لأنني غير ضروري، أنشأ من الصدفة وأعود إليها، كما جئت منها، وكأني لم أكن أبدًا، هذا هو إذن المقصود من هروبي من الناس. وإيثاري للعزلة ورغم ذلك حدث الأمر بالصدفة.

واعلم أن الصدفة أساس كل شيء، فهي البانية والهادمة داخل عاصفة الفوضى التي نسميها الكون، فذات مرة أتت بي قدماي مع صديق إلى المعبد المهدم الخرب تحت الجبل المشرف على الصحراء فدخلته وظللت أغوص فيه ناعمًا بالصمت والهدوء والدعة وأنا عاشق لهم، كما قلت، كنت آكل من حشائش الأرض وزبالتها فأنا ليس لدي مذاق خاص، أو قل إنني أنفر من الرهان على مذاق واحد دائمًا، وأنفتح على مذاقات متعددة، إلى

درجـة بت فيها فاقـدًا لتمييز مذاق ما أتذوقـه ، فأي طعام يصلح لـي وأي وضـع أقبلـه تلقائيًا ، فأنـا لا أنتقي ولا أخطـط ولا أهتم بكيفيـة الوجـود ولا حتى بوجـودي ذاته ، إنني منفـرط ، تاركًا نفسـي للصدفـة وزي مـا تيجي تيجـي وطولهـا ذي عرضها ، بلا خوتـة وفكـر وقلبـة دماغ ، هو أنـا هكون أيه يعنـي ، في الدنيا المهولـة دي ، أنـا مجرد كائن ، كل أمـره صدفة من الألف إلى الياء ومالهوش دعوة بالحكاية كلها من طقطق للسلام عليكم.

غصت في الأعماق إذن ونسيت اللغة إلا قليلاً والضوء واعتدت العتمة والظلمة حتى اسـتقر بي الحال هنا وكان جسـمي يتأقلم مـع الضعف ويضعف أكثر ويتقـزم ويصغر كما تراني الآن فلا تسـتغرب ، الأمـر عـادي يمكن أن يحـدث لأي أحد من البشـر؛ فالوجود مرن ، وقابل لكل شيء.

وما جعل أمري يبدو غير عادي هو الخيال الإنساني ، فصاحبي لم يحـب المكوث معي هنا وخرج ، يحـدث الناس بأمري وصوَّر الأمـر على أنني سـاحر وكاهـن وضـارب ودع وحكيم وعارف الحقيقة وهبطت لأمسك بقلب الأرض وأنني أرسل رسالة الهبوط والانحـدار والضعف؛ وهذا كله غير صحيـح؛ لقد أراد صاحبي أن يكون صانع أسـاطير كمعظمنا ، ويبـدو أنه نجح في ذلك ، فها أنتم تأتون لي وحدانًا وجماعات.

كل مـا هنـاك أقول صادقًـا إنني خجول ومنطوٍ على نفسـي ولا أحـب المواجهـة ولا العمل ولا أي شـيء وأحب النـوم والراحة والكسـل والنظر فحسـب إلى الحائط دون تفكير وتسـتهويني الأماكن الضيقة جدًا ، بحس فيها بالأمان وأمارس رياضة تصغير

عضلاتي وتوهين جسمي وتقصير قامتي وتقزيم نفسي كما ترى.

بكلمة أنا كائن عادي جدًا لا غير، وإن بدوت لك في صورة غير عادية.

❖ ❖ ❖

في طفولتي، كنت كبقية الأطفال، آخاف من خيالي وأبي وأمي وكل الكبار واختبئ تحت لحافي والآرائك، وفي صباي خفت من السماء فوق رأسي ومعجزة الكون المعلق في الفراغ الكوني الهائل، بأجرامه وسماواته ونجومه وأحسسته سيقع عليَّ في لحظة ما، لا محالة قادمة؛ تنامي خوفي حتى من السير خشية تعثري بحجر، وكنت لا أحب الخروج من الدولاب، الذي اختبئ به؛ وعندما تعرفت عليَّ فتاة في شبابي، خفت من غضبها ونكدها وطلباتها إن تزوجنا والوش ووجع الدماغ والخلفة والعيال ومسؤولية البيت الخ، فألغيت الفكرة وقفلت على السيرة إلى الأبد.

طبعًا في ناس منكم أو كلكم، لما بتشوفني بتفزع، أنا بقول إن اللي جاي علشان يفزع مني هيفزع، لأنه عايز يفزع ومهيئ نفسه للفزع ولو لم يفزع من صورتي، هيزعل ويحس أن الرحلة جت على فاشوش. المقصود أن الأمر مش أنا خالص ولا الصورة اللي أنا عليها، وهي مجرد صورة من صور الوجود على أية حال، وإنما الأمر هو أنت وخيالك ورهاناتك على الرحلة بتاعتك، أنت عايز منها أيه وعايز مني أيه.

عمومًا أنا مش مهتم وماتفرقش الحكاية معايا، أعيش في أي

شكل أو حجم، أو أموت؛ أنا خارج كل الموضوعات الإنسانية، أو داخلها دون أن أدري فإن كنت على النقيض من الصورة العادية فأنا أؤكدها.

أنا أصلاً سبت لكم الجمل بما حمل، وخدت بعضي ومشيت وقلت عدو لي وأنسوني، لكن أنتم جئتم ورائي؛ تمام، أيه المطلوب الآن؟ نرجع للحاجة إلى الخارق والمعجز درءًا للملل؟ ماشي خلاص، كل واحد يعمل اللي هو عايزه، وأنا كمان هعمل اللي أنا عايزه، لو واحد فيكم انفعل واتشنج وعمل فيها مفزوع مش هدخَّل عليَّ أي حد تاني أبدًا؛ معنى ده أنا عايز اللي يخش علشان يشوفني وأشوفه يبقي عقلاني فاتح قلبه ودماغه ويتقبل كل شيء بروح القبول والضعف، فالنضج النفسي الحقيقي هو قبول الضعف، هذا ما أراه على كل حال. ودعوني أفصل لكم الأمر.

فقد يسأل واحد منكم لماذا لم أخرج مع صاحبي، أو حتى بعد انتشار أسطورتي، على الأقل لأنعم بالوحدة، فمريديَّ يزعجوني طيلة السنة، في وحدتي تلك، الحق أنني اكتشفت أن ما فعلته رغم تفاهته وعاديته دخل ضمن الأفعال غير العادية والخارقة، بفضل صاحبي التابع لي وناشر رسالتي وهي الضعف الشامل طبعًا، ومن ثم نبهني إلى فعل الصدفة والقدر وإن الدور يبحث عن صاحبه أكثر من العكس، هكذا وجدت نفسي، أنا من يقيم في القبو، ينظر الناس لي كأني أقيم في السحاب، وأنا من يقيم في الأسفل السافل، ينظر الناس له علي أنه في القمة الشامخة؛ وهذا أمر حيرني فعلاً، لأنني بت ألمس فيه حقيقة خفية، تريد

التحقق من خلالي، ويشاركني فيها البشر؛

نعم، أنا إذن أمثل إرادة جماعية غير واعية، تريد التحقق بي، وترفعني عنوانًا لها؛ فلو لم يكن الأمر هكذا، ما اهتم أحد بي ولتركت في قبوي هذا، أموت بهدوء مثل أي عجوز يموت في شقته المغلقة عليه وسط صخب المدينة وضجيجها المصدع للرؤوس.

أدركت أذن أن ثمة مهمة معدة لي وهي: أنني رسول الضعف، رسول الهبوط وليس الصعود، أي أنني أبدأ مرحلة إنسانية جديدة، مختلفة تمامًا عمّا ألفه البشر عادة مع الرسل أو الرجال والنساء العظماء المكافحين للصعود بالإنسانية إلى الذري الشامخة، أنا أعكس هذا وأهبط بالجميع وأتقدمهم إلى القبر والقبو وكل سافل مهين حقير.

وأن ذلك ليس اختياري التام وإنما نوع من الاتفاق الصدفوي تمامًا، كما تكوِّن الريح أشكالاً جديدة في بحر الرمال، فتبدو كما لو كانت طبيعية وراسخة وليست مجرد صدفة.

بعد اطمئناني لدوري المختار من الصدفة والقدر والتلقائية الطبيعية والاجتماعية وأنني مجرد كومة من الرمال، شكلتها الريح واتخذت موضعًا ما، كان عليَّ أن أواصل هذا الأمر، وهنا بدا لي أن لوجودي في القبر معنى وأنني فيه سأحكم العالم الخارجي، أكثر مما أكون فيه بين الناس وأن الأسطورة ضرورية تمامًا لذلك، فزدت منها وأوغلت فيها وبدأ جسمي في التضاؤل والتقزم والانهيار على بعضه، فإذا بي كما ترون كائن ضعيف جدًا ضئيل جدًا، هش تمامًا، أي الصورة النقيض للقوة؛ وما يسوغ

صورتي تلك، ليس الاتفاق واجتماع الصدفة فحسب وإنما إرادتي واستجابتي لتحقيق نموذج الضعف الكامل الخالص، فكأنني المتفوق الكامل، من به القدرة على التخلص من القوة وملازمة فراش المرض والوهن طيلة عمرة.

❖ ❖ ❖

والآن دعوني أمارس عليكم شخصية الأب الاسطوري الذي يقدم لكم الحكم والمواعظ بوصفكم التابعين الخلص مجاهدي الطريق، طريق الوصول إليه ، وسيضطرني ذلك لتغيير نبرة صوتي من العادية إلى المميزة المرهبة..

صمت الكاهن، كأنه يهيئ نفسه لتبديل أصوات وشخصيات أبينا فيه..

ثم تردد صوته على نحو مختلف ونبرة جادة كأنها ليست أقوال أبينا العادية فعلاً وإنما أقوال السلطة الأسطورية الكامنة في أبينا الممثل لصوت الأعماق والقبر الهامس الجليل المخيف.

قال الصوت من خلال الكاهن المتحد بالأب:

أنا الذليل الأذل الضعيف الأضعف الواهن الوهين.

رأيت الخطأ الأول.. وعرفت بداية المشكلة والمأساة فوجهت وجهي صوب الماضي وقفلت راجعًا وحدي وحيدًا عبر دروب الليل سرت، ومن كل شق نفذت وغرت ململمًا الضعف في طريقي، أجمعه وأحمله فوق كاهلي وانحدر عاكسًا طريق التطور.

الطبيعة أخطأت حين انتشت بحملها الأول واستيقظت وطفرت تخرج من قلبها الحياة وتترك كل مطمور يخرج للنور.

الوعي والإدراك نوافذ على الألم والسخف.

كل سعادة كذبة.

كل تحقق وهم.

كل حركة مهما كانت صغيرة ما هي سوى تململ الثبات.

الثبات ملَّ من ثباته.

والسكون ضج من سكونه.

وخرجت الحياة ليرى بها الصمت نفسه.

الحياة مرآة الموت.

موت حي.

وإليكم شيء من سيرة سيدكم.

رفض سيدنا الوعي وأمسك في اللا وعي.

ولما وجد الكلام خلد إلى السكوت.

ولما وجد اليقظة نام.

فصار أبلهًا بإرادته عبيطًا ساذجًا باختياره.

رفض الفعل فصار مفعولاً به وفيه.

ولما رأى أنه لم يغادر الحرية انحرف بها وجعلها تعمل ضد نفسها ، أي بها اختار نقيضها : اللا حرية والعبودية والضعف بديلاً عن القوة.

في طفولته ساير عائلته الثرية فدخل المدرسة لكنه رفض تلقي العلم والمعارف كأقرانه ما أن يعطوه كتابًا ينحيه ولا ينظر فيه.

جالس في مكانه مغمض العينين وإن فتحهما لا يرى بهما سوى اللا شيء.

رفض اللعب والمرح وفضَّل عليهما الحزن والخجل والخوف والهروب والاختباء تحت الأغطية والأسرَّة والمقاعد والأماكن المظلمة صامتًا وحيدًا صائمًا محاولاً العودة إلى رحم أمه.

ولما لم يقدر على العودة إلى رحم أمه قرر العودة بالبشرية كلها إلى رحم الطبيعة الأول وقرر أن يكون اعتذارًا شاملاً من الطبيعة للوجود، الاعتذار الأخير، حيث به يسوى كل شيء بالأرض ويختفي الوعي وتنطفئ الشمس ويغرق الوجود في ظلمة العدم الشاملة الكاملة ويعود الوجود إلى نفسه، في نفسه لغزًا لا يحل ولا يعرف، سرًا مطلقًا حتى عن نفسه.

كان أبونا موجودًا وغير موجود، لا يهش ولا ينش مفعول به يوضع في المكان الذي يريده الآخرون.

وهكذا صار حاكمًا على الناس ملكًا عليهم، يصدر لهم الأوامر ويطيعه الكل وهو فوق كل الكل.

هو لم يسع إلى ذلك وإنما رأى الساسة أنه المناسب ليكون واجهة يختبئون وراءها، عينهم التي ينظرون بها ويدهم التي يبطشون بها؛ كان يحمل من سرير النوم إلى سرير العرش ومن مائدة الطعام إلى مائدة اللئام، الحكام الساسة، الفرحين بالبهلول المتحمل لكل الظلم والسخف برضى وحب ويدعو الناس إليه ويحثهم على اللا فعل وحب المرض وخواء النفس وباطل الأباطيل.

يقول أبينا :

لا تفعـل شـيئًا وإن فعلت، اعـكس النتيجـة وامضِ في اتجاة السبب.

لا تسير بوجهك وإنما بظهرك.

لا تنظر أمامك وإنما خلفك.

لا تهتم بالمستقبل ولا باللحظة الحاضرة وإنما بالماضي.

لا تحضـر الماضـي إلـى حاضـرك وإنما غـادر حاضرك إلى الماضي.

وأعلم أن الماضي بلا نهاية أو بداية فتقهقر دائمًا.

إن قيل لك عش في نظافة، وسِّخ نفسك ومكانك.

إن قيل لك عش في حديقة، أجعلها مزبلة.

إن دفعت للكرامة، حولها إلى مهانة.

إن وضعوك في العالي، أجعله سردابًا مقلوبًا.

اهبط إلى الحفرة جاذبًا الكل معك.

الحياة: خطأ وعدم ظاهر.

الشجاعة: خوف ظاهر.

الكرامة: مهانة ظاهرة.

انظرو إلى الشيطان المتواري خلف الفضيلة.

تجدوه يحركها كما تتحرك العراس الخشبية على المسرح.

خلف كل كمال يوجد النقص.

خلف كل حب توجد الكراهية.

في ظهر الحياة عظام الموت.

رأى سيدنا أنه لا بد أن يكمل رسالته وأن يحقق نموذج الإنسان عاكس التطور، فترك كل شيء: الحكم والعائلة، حتى الأتباع المحبين ومضى مع ثلة مختارة إلى الجبل العظيم وراحوا يوغلون في سراديبه وينحدرون في أعماق الأرض، سنوات طويلة صائمين، صامتين؛ كل اتباعه تساقطوا منه وماتوا في الطريق، الذي كان يضيق ويضيق ويفرغ منه الهواء والضوء وتحل بالسائر الكوابيس والمخاوف ويسمع صراخ كائنات الفزع المسحورة ويشم رائحة جوف باطن الأرض الرهيب ويحس بأمعائها الحجرية تهضمه وتصهره وتذيبه، حتى انتهى وحيدًا إلى الجحر الأخير وكان شقًا ضيقًا، كأنه شق المهبل ومنه إلى كوة تحته ومن الكوة غاص أكثر إلى ثقب، ومن الثقب إلى ما لا يدريه أحد، كأنه وصل إلى الرحم، لكنه لم يهدأ وظل يواصل الحفر والغوص أكثر وأكثر حتى الآن.

أيها المريد وأنت داخل إليه ابكِ وتضرع واضرب نفسك ومزِّق ملابسك ولحمك وروحك، حتى تتصعك وتذوب وتتكفئ بوجهك، لترى مصير الإنسانية كلها، ليست السماوات وإنما الجحر الجحير، ليست العظمة والشموخ وإنما الهوان والإذلال، حيوا بقلوبكم من عكس التطور وعاد بالإنسان إلى أصله، يعانقه ويتحد به وينام فيه.

❖ ❖ ❖

كان كل واحد منا بالتتابع يزحف داخل الثقب الصخري الضيق المرعب مختنقًا بطنه مشفوطة وضلوعه محكمة وأكتافه مهصورة، يزحف بصعوبة بالغة داخل الممر الصخري الرطب العجيب، الأشبه بأنبوب طويل، في الحجر الضخم، يزحف متنفسًا بصعوبة، ومتعرقًا بغذارة، حتى يجد فتحة الخروج، فيلتوي ويكمل زحفه الصعب متنفسًا الصعداء.

لكنه عند التوائه يلمح ثقبًا متطرفًا قليلاً، لا يزيد عمقه عن شبرين واتساعه عن شبر واحد، يعيش فيه أبينا حياته العادية، بهدوء وصمت، يجلس على مكتبه، ينام في سريره المتناهي الصغر، بطريقة عادية، لا يشعر بضيق ولا اختناق ولا مشكلة، كأنه في وسعٍ وانفساح وبحبوحة؛ بلا ملامح، لا هو رجل ولا امرأة، ولا طفل ولا شاب، أو كهل وأنما كائن، يشبه البشر بطريقة ما!

كان أبونا الضعيف الضئيل جدًا، إلى حد خرافي حقًا، ينظر من حفرته العبثية، إلى المطل عليه، نظرات ليس لها معنى ولا هدف ولا يعرف الناظر هل ما يراه هو أبينا حقًا، أم طرفة سمجة سخيفة، نكتة بايخة سقيمة، هزر مبكٍ.

هتف الكاهن للمرة الأخيرة بعد اكتمال مرورونا على أبينا بصوته هو وكان صوتًا كهفيًا، قديمًا، يصّاعد كالغبار في حلقه الناشف:

حيوا معي أبينا الحقير، أبا الحقارة والذل وانحنوا وتعلموا وضاعة الشأن الحقة، لتأمنوا غدر الكبار، الأسود البشرية

الشريرة المتطاوسة في أعاليها.

انكببنا على وجوهنا كلنا تقريبًا، وكنا في حالة من الهلوسة الدماغية والجسدية، لا توصف أبدًا والبعض منا انفجر ضاحكًا، ربما أصيب بالجنون والخبال والبعض منا فر هاربًا.

خرجنا من الجحر واحدًا فآخر وتجمعنا ثم قفلنا راجعين، بصحبة الخدم، من نفس طريق قدومنا البشع البشيع، شاعرين بالهوان الإنساني النهائي الحق ومدى قدرة البشري على إذلال نفسه، دون مبرر، كده وخلاص.

سرنا جميعًا واجمين حائرين، رغم أننا رأينا صورتنا المستقبلية وعرفنا كيف سنواصل مسيرة التصاغر والذل بين البشر.

فيما الحراس يقودوننا بالشتائم وقرع الدفوف والطبول..

من أنتم

: لا

فخر

نحن

الضعفاء.

جهلاء

ولو كنا العلماء.

كسر بشري،

ولو كنا الكمال يمشي.

مدعين كذابين،

وإن كنا الصادقين.

وضيعي النفوس،

وإن كنا فوقها.

كشري الوجوه،

وإن السعادة ماؤها.

كارهي الحياة،

وإن كنا دماؤها.

بلا قيمة،

وإن كنا ميزانها.

مذلون مهانون،

وإن الأصل مكانونا.

فقراء،

ولو قارون خادمنا.

بلا معنى،

وإن كنا كتابًا.

مشردين،

ولو بين أهلينا.

صيَّع،

ولو لم نفارق بيوتنا.

غلاظًا

ولو الرقة شرابنا.

نصابين،

ولو تقدسنا.

حاسدين،

ولو كُرّ منا.

موامس،

ولو الصقور أشنابنا.

شواذ،

ولو الأصول منبتنا.

شتامين لعانين،

في تهذيبنا.

للريح الأرض وحزنها مطايا،

وإن كنا في سماءها أقمارًا.

كلابًا قططًا أرانب،

صراصير حميرًا جاموسًا،

بقرًا ثيرانًا غربانًا بومًا،

وإن كنا الأسود الضواريا.

عرج مشلولين معتوهين مجانين،

وإن كنا العتاة الفوارسا.

مساكين،

ولو جبارين.

سمجين قبيحين،

في جمالنا.

باعة جائلين،

ولو ملكنا الدكاكين.

مجرمين سفاحين خطافين مغتصبين،

ولو في النعيم رافلين.

عراة،

ولو كنا خياطين.

طماعين نهاشين نهابين،

وإن بدونا مترفعين.

بكَّائين شكَّائين مولولين نواحيين،

وإن كنا السعداء الضاحكين.

مهتوكين مسروقين منهوبين مظلومين مسجونين مشتومين،

وإن كنا الكرام السخيين.

للنجاح كارهين،

وإن كنا فيه قائمين.

وخمين كسلانين عنينين،

في نشاطنا.

هلاسين، ثقال الظل، لا وزن لهم، غائبون في حضورهم،

منسيين،
ولو على السحب ماشين.
بلا مستقبل،
ولو كناه.
في الهامش،
وإن كنا متناه.
مبغضي التقدم،
وإن كنا منتهاه.
عزالاً،
ولو كنا الأحبة.
رافسي النعمة،
ولو كنا النقمة.
لا نعرف القيادة والقوة السلطة والكرامة والسعادة،
وإن كنا عين السيادة.
أبناء الليل المطاردين من الكل،
المختبئين من الكل،
المرتعبين من الكل،
ولو كنا فوق الكل.
سفلة أدنياء،
مدمري أنفسهم والآخرين،

زبالة البشر أجمعين،

ولو كنا آلهة.

نحن الضعفاء،

لا

فخر.

❖ ❖ ❖

المؤلف في سطور

صبحي شحاتة

مواليد القاهرة - ١٩٦٥

نشر له

- الضحك - رواية - دار فكرة للنشر والتوزيع - العام ٢٠٠٨.
- اللعب - رواية - دار كتب الجنوبي للنشر والتوزيع - العام ٢٠١٥.
- الظلال - رواية - طبعة تجريبية - دار كتاب نون - العام ٢٠١٥.

قصص للأطفال

- كتاب الحكايات الجميلة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - العام - ٢٠٠٦.
- بيت مملوء بالفراشات - الهيئة العامة لقصور الثقافة - العام ٢٠١٣.
- عصفور الماء - دار شجرة - ومكتبة الأسرة - العام - ٢٠١٧.
- كنوز السماء الهيئة المصرية العامة للكتاب - العام ٢٠١٧.

الجوائز

- جائزة سوزان مبارك لأدب الطفل - العام - ٢٠٠٢.
- جائزة أحسن كتاب للأطفال في معرض القاهرة الدولي للكتاب - العام ٢٠١٨.

تحت الطبع

- الثراء - رواية.
- عين السمكة - رواية.
- الحب - رواية.
- دعابة - رواية.

❖ ❖ ❖

الفهرس

نشيدونا ٧
نهر الخراء ٢١
المزبلة العظمى ٣٦
كاهن الخوف ٤٥
كاهنة النسيان ٥٠
برد الخراب المطلق ٥٨
كاهن الصمت ٦٢
كاهنة القبح ٧٢
جهنم الحمراء ١١١
كاهن المرض ١٢٠
كاهن التفاهة ١٢٢
كاهنة القذارة ١٢٤
كاهن النسونة ١٢٧
كاهن الخبص ١٢٩
كاهن الرغي ١٣٢
كاهن الحقيقة ١٤٠
كاهن السخرية ١٤٢
كاهن المزاج ١٤٤

أرض المتاهة... ١٤٨
كاهن المتاهة ١٦٠
أرض اللا مبالاة ١٦٦
أبو الضعف... ١٧٦
المؤلف في سطور ١٩٩